

التجارب

وهي مجموعة مقالات اجتماعية



ولي الدين يكن

التجارب

وهي مجموعة مقالات اجتماعية

تأليف

ولي الدين يكن



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيث ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إن مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: خالد المليجي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١١٧٧ ٠

صدر هذا الكتاب عام ١٩١٣.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٥.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرخصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	مقدمة المؤلف بخط يده
١١	١- استغراق لحظة
١٥	٢- إنَّ أكثر الجد هزل
١٩	٣- التعصب يُخْرِج الحرية من ديارها
٢٣	٤- الأحرار وأعداؤهم
٢٩	٥- بعد الموت
٣٣	٦- نعم الجدود ولكن بئس مَنْ تركوا
٣٧	٧- كيف يموت الأدباء في الشرق
٤١	٨- ويل للناس من الناس
٤٣	٩- إحدى عواصف الضمير
٤٧	١٠- التكبر وحداثة النعمة
٥١	١١- بين الوحشين الأب والزوج
٥٥	١٢- ما أكثر خطوبك يا فروق!
٥٧	١٣- لعل النهضة الثانية أثبت من الأولى
٥٩	١٤- كم تحت هذه السماء من أعين باكية!
٦١	١٥- ما يمنع القلوب أن تطير من الصدور؟
٦٥	١٦- عبد الحميد مبكياً بعد سقوطه
٦٧	١٧- بين أنقاض الوطن
٧١	إلى حضرات القراء

مقدمة المؤلف بخط يده

كل ما يتعلم المرء من حوادث الأيام تجزئة . وما يستفيد من تجزئة
منفيتها الا وقد استلوا من تجزئة الملائم . ولو ما بقي
تتبعها الفطاة وهي غير ما بقي لغاضت عنه كتب التبع
وسات . ومنه ما يسلم من النسيان قبل . وفي ذلك ان يقبل
ذكرى اذا استدارها المرء وجد راحة في استدارها . هذه
اللام صخرة . ويتكادى منجدة . هذه هذه الفراء
المقدوح . الالفه المقروعة . الالفه
منجيا تتألف به وتتألف . اذا لم تنفع البرم تنفع

وكتبت



ما كان أهناًني وأسعدني لو كان ينفع معشري قلمي
أنا لي فؤاد لا أنزهه لكن يراقب ما يقول فمي

ولي الدين يكن

الفصل الأول

استغراق لحظة

وقف الرأي والهوى ينظران
والبرايا لديهما شيعتان
قضي الأمر واستراح الجاني
فلقد مر في الغرور زماني
قبل عشرين حجة أصباني
واشهدا معه أيها الهرمان
باقيات - تكلمي يا مغان
وقماريك رددت ألحاني
فكما شئت مهجتي ولساني
قد سقاني فيك الهوى من سقاني
انظروا كيف يسعد العشقان
وأنا مذ عرفت أباكاني
جدّ حتى عن المنى أقصاني

بين صدق النهى وكذب الأمانى
للهموى جرأة وللرأي حكم
يا نفوساً جنى الشباب عليها
لست ألك في زمان غرور
والخيال الذي صبوت إليه
خبّر الناس أيها النيل عني
المغاني التي بكيت عليها
غازلتني عيون زهر كحينا
وإذا أنت حال عهدك بعدي
يا ربوع الهوى بأية كأس
بلبل مشتك وورد مصيخ
أضحك الدهر معشراً جهلوه
كلما قلت للمنى أدناني

* * *

ينجلي نازل فيغشاك ثان
قوّضت من علاك شم المباني
طال ظلم الإنسان للإنسان
من نعيم فذاك للتيجان
استسرت في ظلمة الأديان

أيها الشرق كيف حالك فينا
هدمتك الخطوب صرحاً فصراً
يظلم الناس بعضهم منذ كانوا
وإذا كان في الحياة قليل
والعقول التي نخال أنارت

انتهيت من صحائفي السود وما صدقت أن سأنتهي، تلك فصول أدمجت فيها وصف آلامي، وكان طيها خيراً من نشرها لولا لجاجة النفس شديدة النزوان. ولو كان في نطاق الصبر سعة لاسترسلت فيها وبلغت بها غايتها، ولكن كان خير مما لو كان. وهذه فصول تجارب، أقدم عليها جهلاً بمخاطرها، كالموغل في الأجمة بليل مسترخي السدول، لا يدري ما وراء أثلاثها وغاباتها، فإن غمرت من مياها وفوزت من قتادها، فتوفيق غير مؤمل من مثلي، وإن ملكتني سورة هولها وأخذت علي مرادها ومسارحها، فما أنا أول ضال عن قصده، وفي حسن النية مأساة للآيس وتخفيف للملام.

لقد رأيت قومًا راعهم ما قرءوه من فصولي، أولئك فريقان، فريق من المسيحيين وفريق من المسلمين، أكبر كلاهما أقوالي ولم تنشرح لها صدورهم، فسكت عنها بعضهم ولامني فيها بعضهم، وأنا في شغل عن الصامت واللائم، هذا باب اجتهد فتحتة لنفسي، ولا يعرف مرادي أحد مثلي، ومن لا يعتمد ما ظهر من رأيي فليأتني بما يحسبني أضمره أو فليدعني وليذهب عني بسلام، وحسبي اليوم أن أقول ما قاله أكثم بن صيفي: إن قول الحق لم يدع لي صديقاً.

رأيت كاتباً قال في أحد فصوله إنه يحتقر من يترك الصوم في رمضان ويجهر بذلك، فعلمت أنه عرّض بي — عفا الله عنه — لو باليت مثل احتقاره لكنت في موضع غير الذي أنا فيه، ولسوف أوصل جهادي حتى يقلل الله من أمثاله، فإن عشت حتى أدرك المرام كان ذلك فضلاً من الله، وإن تحل المنية دون الأمانى فكم في هذا الشرق من حرّ قلامة ظفره خير من حياة ألف ولي الدين.

وبعد، فهذا ما أستطلعه في استغراق لحظة، أفكر في الشرق، نجلتني أبوته ونتقتني أمومته، واليوم تشقيني محبته، يا حبذا المهدي يا حبذا اللحد، توسده المجد وليداً ثم توسده ميّتا، بلاد وأمم، كلها حبيبة وكلها عزيزة.

قلت في نفسي: ما يقعدني عن إصلاح هذا الوطن الكبير الذي أحبه، فرحت أتخيل، جعلتني حاكماً على الشرق كله قريبه وبعيده وسهله وجبله، فشيدت معاهد التأديب، وأقمت بنايات العلم، ورفعت بيوت الصناعة، وضربت للعدل رواقه، ومددت للأمن أطنا به، وزينت أسواق التجارة بالنفائس، واستخرجت من بطون الأرض كنوزها، وخلعت عليها مطارف خصبها حتى سال النضار في جداولها، وقر اللجين في قيعانها، وقلت أقبلت عليك السعادة أيها الشرق وراجعك الإقبال، ووقفت أسائل نفسي: أبقى للشرق شيء يحتاجه، أم قضيت له حوائجه كلها؟ وإذا أنا بمكاني من التقصير والتفريط.

وا حرَّ قلباه! ما ينفع كل ذلك وبين أحناء الأضالع وفي سويداوات القلوب نفوس مستعصية على الخير إذا وكزتها أوضعت وإذا لاطفتها حرنت، فأهلها كالعير لا يسيرون إلا وخلفهم العصا، فمن هؤلاء المعاندون ومنهم الأعداء والكلفون بالرئاسة كعبيد الله استطال على العرب ثم استثار تعصب المتعصبين على قتل المسيحيين، ثم وقف ينتصر للألمانين ويحض الناس على قتال الإنكليز، ومثله كثير في البلاد العثمانية وفي مصر وفي غيرهما من بلاد الشرق.

وبينا ينادي حماة الإنسان وأنصار نجدته إلى الإخاء، إذا صف جديدة تأتينا وكلها دينية، منها المسلمة ومنها المسيحية، جدال استعرت ناره بين المآذن والنواقيس والمشايخ والرهبان، كلُّ يصحح دينه، وكلُّ دينه في غنية عن التصحيح، وما عاقبة هذا، وأين يكون مستقره؟ وقانا الله لفحات قيظله.

قلت: الخطب أيسر، تتفق حكوماتنا على طرد هؤلاء الناس أو تكرهمهم على السكوت حتى تُكشف عنا غمّاؤهم وتسكن عواصفهم، ثم استطلت تأملي فألفت المعضلة على أصلها، ما حلت لها عقدة ولا قاربت لعقدة حلًّا، ما حيلتنا في هذا البارض النضر الذي أتى به ربيع الحياة؟ أريد فتیان اليوم ورجال الغد، يذهبون إلى مدارسهم فيتعلمون بها ما ينير بصائرهم ويصفي نفوسهم، ويُنفق عليهم الذهب من خزائن الحكومة وأرزاق أهلهم كالطر الجود، حتى إذا أشربته قلوبهم وماج في صدورهم غلبت على شدته نفثة من نفثات معمم أو مقلنس يأتهم مسترزقًا ويدانيهم مجترئًا، فرأيت روح عبيد الله تجول في كثير من تلك الأجساد الطاهرة، فقلت وا أسفاه!

وعنَّ لي بعد ذلك خاطر جديد: حال بناتنا، نغدهن الصحة ونعلمهن النضرة ونربيهن على حواشي العز ونسيرهن في مهرجان النعيم، فإذا بلغن غاية ما تشتهي الأنفس أسلمناهن إلى بعولات كالأزواد جسومًا وكالبعوض أحلامًا، يرفعون بينهن وبين الحياة الطيبة أسوارًا، يغارون عليهن من شعاع الشمس وبرد النسيم، ولا يغارون عليهن من يد الموت ولا ضم الجدث.

فلما كثرت في صدري هذه الوسوس، وأطبق عليَّ ظلام اليأس عرتني هزة كهزة الكهرباء خرجت بي من استغراقي، فندمت على تخيل حول وطول ما خلقت لهما ولا قبلَ لي بهما، ولا تمنيتهما فيما يُتَمنى، وصحْتُ وا حرباه! برح الخفاء ووضحت السبيل، وإنَّا لا محالة خاسرون، ولرب فكر لحظة أفادهم الأبد، ما أهون هذه القلوب على خطوب الدهر! وما أضيع ودائع الأمانى في نهم الأيام! ولو غني الناس بوصف كل همٍّ واغل

التجارب

ووجد مستحدث وشجن مستثار لذابت الأفئدة، وضجت إلى بارئها الأرواح، غير أن الجد في السعي والاستمرار على النصح يهون الخطب ويؤخر يومه، وما أنا من تسمو به همته إلى ادعاء ذلك، ولكن للعلم في عصرنا نهضة شخّصت لها الأبصار وعنت الوجوه، وكلنا على آثار رجاله لسائرون، فنعم مفتاح باب العقل الأشب.

الفصل الثاني

إنَّ أكثر الجدهزل

التاريخ ديوان العبر ومرة الأخبار، ثم هو شاهد الزور وراوي الأكاذيب، هذه دعاوي لا تحتاج إقامة البينات، وهذا إيماني لا يزعزعني عنه جدل ولا يغلبني عليه شك، وإذا كان فيما لدينا من أخبار القرون الأولى شيء لم يموه بالكذب فذاك قليل بل أقل من القليل، ومن البلية أن لا نستطيع التمييز بين الصدق والكذب في واحدة من تلك الروايات لبعد العهد وامتناع المرجحات.

وفيمن أطراهم أهل التاريخ أناس مجدهم من غيرهم: معاوية سوّده ابن العاص والعباس توّجه الخراساني، باء الملكان بالسوّد والعز وفاء الخادمان بمواهب وقعت ثم انتزعت، والملكان كلاهما ثائران عاصيان صدقهما الجد، وجرت على ما يبغيان الحوادث، فنشأت دولتان كبيرتان ملأتا أكثر الصحائف من كتاب التاريخ.

كنت جالساً ذات يوم مع صديق لي من خيرة الكتاب، فجرى بيننا مثل هذا الحديث، فقال صديقي: أحمد الله أن أُحرقت دار الكتب التي كانت بالإسكندرية، قلت ولم ذلك؟ قال: من يدري كم حوت من الأحاديث الملفقة والأكاذيب المبتدعة فأكلت النار جميعها، وزالت عنا حماقات لو دامت لنا لأضلت عقولنا، قلت: صدقت.

إن الأزل والأبد لمجهلان من مجاهل الزمان، ما ارتاد أحدهما فهم من الفهوم إلا أضل قصده، ما سيكون مثل ما كان، ولأن تشابهت الوقائع والحالات فإن بينها لاختلافات جمّة لا تخفى على اللبيب، والظنون — قاتل الله الظنون — تأوي إلى نفوس الكاتبين فتذر عقولهم حيارى وتسير أقلامهم مفترية وآثمة، والويل لمن طابت سريرته وحسن إيمانه، فذاك يعيش على ضلال ويموت على ضلال.

هات بعض ما كتبه المؤرخون في عبد الحميد يوم لم يخنه جده ولم ينقلب عرشه، ثم اقرأ ذلك ممن لا يعلم صدقه من مينه يقل لك: إن عبد الحميد ملك لم تطلع الشمس

على خبر منه، ويصدق بما قيل من زور وبهتان، ولو فاز العرابي في ثورته ووفت له الأيام بلباناته لصرت الأقلام بمدحه وتغنت الأفواه بمناقبه، وعبد الحميد أحد الظالمين والعرابي أحد العاصين.

يقولون التاريخ، وما هو التاريخ؟ إفك وتأثيم، وإن بين من سوّدوا صحائفه ونطقوا بكذبه لأناساً أجفل عنهم الحياء، يحكون حكاية الشاهد لا السامع، ومنهم من يتبع روايته قسّمه، إصراراً على الزور وإلزاماً لقارئ كتابه، ألا شأنت تلك الوجوه. وإن فيما حدثنا به المؤرخون مثل قصة الزنبيل التي رواها الموصلي عن زواج المأمون ببوران وما زعمه صاحب العقد من حديث الرشيد مع أم جعفر حين هم بقتل البرامكة، وما أدعوه من أمر الذلفاء وابن عبد الملك الأموي لظرفاً وأدباً، ولكنه تضليل لعقول الناس وعارٌ يُلزم من نقله من المؤرخين.

وبينا نعلل الأنفس بأن ستذهب عنا هذه الخيالات وتبقى لنا الحقائق، إذا بنا نأتي بما لم يسبقنا إليه السلف، كأن قد قُضي على هذا الخلق أن لا يسمع إلا لغواً ولا يعلم إلا كذباً، وما فضل عصرنا على خاليات العصور إذا بات علمٌ من علومه ظناً من الظنون. توجهت يوماً إلى صديقي جورجى أفندي زيدان، فأقبل عليّ بأنسه وحديثه، ثم أتى ذكر صحف الآستانة، فأتينا على حسن طبعها وجودة ورقها ورقة صورها، فناولني مجلة من مجلات فروق اسمها «رسملي كتاب»، وإذا فيها صورة رجل لو كان جهله علماً لكان إلهاً، كُتب في أسفلها أن صاحب الصورة من مشاهير الكتاب، قلت يا صقع الله هذه اللحى، ويا عوج الله هذه الأشداق، وقلت إن زماننا كزمان غيرنا، ولكنّ للماضين عذراً ونحن لا عذر لنا إن شاء الله.

ورأيت كتاباً لعثمانى — هو نزيل مصر الآن — اسم الكتاب «ما كابده في سبيل الوطن»، وموضوع الكتاب من على الأمة وذم في جمعية الاتحاد والترقي، وكل هذا يجوز أن يغلب عليه الصفح الجميل، ولكن قدح المؤلف في الماسونية أو كاد، فسَمَجَ عندي تطفله، ورأيت علمه دون كبره فأنزلته منزلة لن يرقى منها درجة ولو أدلت الكواكب إليه أسبابها.

أما أن أن نفيق؟ سكرة هذه يذهب فيها عمر الأبد، كاد الدهر يموت ونحن كيوم خُلِقَ مَنْ يدعونه آدم. وبعد، فلا ننثني عن التماس الجد وادعائه والهزل ينطق من عيوننا ويبدو على نواصينا، وما يمنعنا أن نحسّن نفوسنا أو نقوم طابعنا إلا كلف بما يغير الحكمة.

إِنَّ أَكْثَرَ الْجَدِّ هَزْلٌ

لقد أُمِرُ بالمكتبة من المكتبة فإذا لاحت لناظري مجلداتها في ذهبها ونقشها
أعرضت عنها إعراض السائم، وقلت كم في بطونك من زور، وكم تنطقين عن هوى؟
وسبيل العزاء أن نقول كذا شاءت الأقدار، وما تشقى الأقدار، بل يشقى أنفسهم الناس.
هاتوا مَنْ ينقض كلامي هذا، نعم نعم، إن أكثر الجد هزل، وإن التاريخ ديوان العبر
والأكاذيب.

الفصل الثالث

التعصب يُخرج الحرية من ديارها

هلموا إلى نجدتها يا أحرار

أما من فتى في الناس حرٌّ بناصره
فما لأخيهم لا يرى من يؤازره
إذا ربه المعمور أخلق دائره
«كما انقض بازُّ أقم الریش كاسره»
وقالوا وحيدٌ ما لنا لا نكاشره
وما بعده فينا عدو نحاذره
كما طاف بعد المحل بالربع زائره
وغبره بالذم في الناس غابره
وفينا نيازي قائمٌ وعساكره
فدارت على القوم الكرام دوائر
موارده محميةٌ ومصادره
أوائله حتى استسرَّت أواخره
يُجازى على قول الصواب معاشره
يريدون طي الحق إن قام ناشره
ذوي وأرق الإقبال منه وثامره
سلامٌ على العهد الذي قلَّ شاكره

أسيرٌ بدار الظلم أعياه أسره
أفي الناس أحرار وفيهم أحبة
عفاءً على الزوراء بعد جميلها
ألم به خطب من الجور فادح
تنادوا به والضغن ملء قلوبهم
فإن نكفه نكف الشديد مراسه
فطافوا به من خلفه وأمامه
أحين هوى عبد الحميد بعرشه
يقوم رجالٌ يستعيدون عهده
ألا قد بغت هذي العمائم بغيا
ألا لا نرجي العدل والعدل دوننا
تجلَّى زماناً ثم لم تبتسم لنا
بأي كتاب أم بأية سنة
بأي كتاب أم بأية سنة
سلامٌ على الأوطان من بعد مأمل
سلامٌ على الدنيا سلامٌ على الورى

سنبكي على العيش الذي كان غرنا
سقى الله أجدثاً علت شهداؤها
قضوا تحت أسوار الحصار حمية
فإن يك بالدرويش قد زل جده
أقام على الأطلال كالبوم ناعياً
فأما قضى فيكم جميل بحسرة
وإن تحجبوا من فضله كل باهر
أخي وفجاج الأرض بيني وبينه
أعيزك من وجد يضيفك نازلاً
توقف في ظلماته غير منجل
تشوفك البيت الذي كنت بدره
وأصبح زاهي الروض بعدك يابساً
فإن تظلموا فيكم جميلاً لغاية
وإن فريق الظلم إن طال ظلمه

وقد ساء ماضيه وما سر حاضره
بكل ملث الودق تهمني مواطره
ولم تغن عن عبد الحميد دساكره
فهذا عبيد الله خلّق طائره
يبشر بالتخريب ساءت بشائره
ستبقى عليكم شاهدات مآثره
فليس ضياء الشمس يحجب باهره
أعيزك من هم تبیت تساوره
وأهوال ليل مظلم أنت ساهره
كواكبه تسطو عليها دياجره
لقد أظلمت حزناً عليك مقاصره
وناح على دوحاته لك طائره
فإن جميلاً ليس يغفل ثائره
سنمشي إليه بالسيوف نبادره

أيها العالم الجليل أستاذي الدكتور شبلي شميل: أهبت بنا فأسمعت، قرأت في المقطم ما سطرته أناملك الطيبة، وأنا طريح الفراش طليح الهموم، فخلت السقف وقع على رأسي ونهضت واقفاً، وها أنا أسطر هذه السطور ولا أدري هل أجد جلدًا إلى إتمامها.

كنت قرأت ردود المؤيد على العلامة الزهاوي فاستشعرت وجلاً وأحس قلبي بالشر، ثم عاجلتها بكلمة عنوانها «المرأة المسلمة بين القاتل والفادي» نُشرت على صفحات المقطم الأغر، غير أن كلام السوء أنفذ سهاماً وأشد إصابة لمقاتل الرجال من كلام الخير، فذهبت صيحتي ولم يرجع لها صدى، ودوّت صيحة المؤيد وأشياعه لتمام المحنة ولشقوة الأمجاد، هكذا دأب الشرق يفلح الغاش ولا يفلح الناصح.

قلت حين نبذوا لنا جيفة الدستور: نؤازر هؤلاء القوم القائمين فينا بالأمر، ربما أصابوا من حيث لا يشعرون، وكم رمية من غير رام، ثم أوائل الدول تأتي بمخلوقات عجيبة كصندوق الدنيا فيه عجائبه، وقلت اطمئني أيتها القلوب واسكني يا ثائرات النفوس، ووقف إخواني العثمانيون يتفرجون فما راعنا إلا مذابح وفتن وغارات تتلوها غارات، وصخب وضجيج بين نواب الأمة يتجاذبون أطراف الفوائد، كلُّ يريد أن يسمن

كبشه، فبدت السرائر في أشكالها وألقت الأفواه بما أخفته الصدور، فقلنا على الآمال والمستقبل السلام.

ولما افترّ التعصب عن نواجذه أقمنا نقصد المراثي لننوح بها على الوطن في جدته، غير أننا حاربناه فغلبنّا، واستجرنا بأنصار الأدمية فلم نجد مجيراً، وما بنا أن نلقى المنية في جهادنا، ولكن من لهذه المخازي بعدنا يسجلها في دفاترها السود لتبقى عظات خالداً للأعقاب؟ هذا داءٌ أعزل قلت الحيلة في استئصاله، وأنت طيب لا يزداد مثلك علماً، وترى عبيد الله يسعى في أديم كأديم التمساح، لا تعمل فيه النبال ولا رصاص المرتيني، ومن لنا بماوزر أولوبيل ولي متفورد فنجر به في جسده عسى يستشعر ألماً أو يُحدث في خلقه تغييراً، هيهات هيهات!

وكم من مثل عبيد الله، وقوفاً مشمرين يحفرون للوطن لحدّه، والأمة تنظر ولا ترى، هي في حاجة إلى الدرس والدرس فات زمانه، وما يجدي الدستور إذا كان الشعب لم يتهيأ للدستور؟! جنى جانٍ جناية كلنا مأخوذون بها اليوم.

وجرم جرّه سفهاء قوم فحل بغير جارمه العقاب

أخواننا الذين يظلمهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام، وهم معذورون، ثم شفار أرهفت وسيوف سُلّت تقتطف الرقاب كما تقتطف الثمار، ومن قام مصوّتاً بصوت قامت عليه نوادبه، ونوابنا — حماهم الله عيون الحاسدين — كجماعة الإوز تتحاوم على مناهل الماء، لكل امرئ منهم شأن يغنيه، وفي القتيلين على جسر غلطة عبء للسائلين.

أما لو يفيد العتب لعصفت به عواصف هذي القلوب، أما لو يغني النصح لامتلات به بطون الدفاتر، ولكن قال أبو الطيب:

يُرَاد من القلب نسيانكم وتأبى الطبائع على الناقل

على أنني أرى رأياً أخاله يخرجنا من هذا المأزق، ولا تتسع له هذه السطور، وما هو مما يُنشر بالصحف السيارة، فاضرب لي ميعاداً توافيني فيه إلى عند الأساتذة أصحاب المقطم، هنالك أبسطه لكم وتنظرون أنتم فيه.

وبعد، فيا أيها المسلمون، أنا مسلم مثلكم، يحزنني خسرانكم ويشركني معكم مصرعكم، هؤلاء الرجال الذين أثقلت هاماتهم العمامُ أكثرهم لا يعقلون، كان

عبد الحميد يقتل الناس ويظلمهم وينفيهم وينهب الخزائن، وكل هذا حرام في دينكم، فما قام في وجهه واحد منهم ناصحاً أو رادعاً، ولكنهم اليوم — وقد وسعتهم بلاد الحرية — يكرهون أن يروا حرّاً يتكلم، يهاجمون من لا يكون من فريقهم، يملئون الدنيا صخباً وضجة، يكفرون الساعل والماخط والأكّل والشارب حتى لقد زهدونا في الحياة، وهم أشد الناس بها تعلقاً، فلا تجعلوا لهم سلطاناً عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقاتكم وأنتم لا تعلمون.

إن ينزل بالزهاوي نازل من الظلم فتلك سبيلُ أبنائكم سالكوها غداً، فإلا يحزنكم مصرعه فإن في مصارع أبنائكم ما يستدر جامدات العبرات، إيه لكم! قطعت الشعوب أشواطاً في منازل الحياة ونحن إلى الوراء راجعون، لا تكونوا واسطة السوء بين الأسلاف والأخلاف، أما لتقذفن لكم الأرحام بأضاحي كالتي شهدت، تلبسون ليومها السواد ويطول عليها أنينكم تحت طيات الدياجر.

استجار المقطم الأغر بالوالي وبالرئيس — لك الله — إنما تستجير من الرمضاء بالنار، بُحت الأصوات وتقطعت الأنفاس واضطربت الجوانح وعيت الألسن وشلت الأنامل.

وقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ألا في سبيل المجد والحق والحرية شهيد جديد، إذا لم يخنه جده ويرن في الأسماع نعيه فقد جاوز مهالك عظيمة، وإن حم حمامه — لا قدر الله — فإننا له ناثرون أو به لاحقون، وليرَو ثراك أيها الوطن بدمائنا إن لم تروه أنهارك، ولتقم في جوانبك المناحات على أنصار الحرية وأبناء آدم شهود.^١

^١ كُتبت هذه الرسالة والتي بعدها على أثر اضطهاد حكومة بغداد للأستاذ الفاضل والعالم العامل الشيخ جميل الزهاوي وعزله من منصبه وزجه في أعماق السجن لكتاباته بشأن المرأة والحجاب.

الفصل الرابع

الأحرار وأعداؤهم

قال قيس بن زهير:

إذا أنت أقررت الظلّمة لامرئٍ رماك بأخرى شعبها متفاقمٌ
فلا تبدِ للأعداءِ إلا خشونةً فما لك منهم إن تمكنَ راحمٌ

لله أبوه! ما أصدق قوله، وما أعرفه بمواضع الرأي! إن طوائف المتعصبين الذين أجفلوا من سيف الحرية وأظهروا الرضاء بالانقلاب العثماني يصدق فيهم هذا الكلام، لقد خفضوا لنا أجنحة الذلة وأبدوا جانب الاستكانة رهبًا لا رغبًا، والظلم كمين في نفوسهم يخمد الضعف جذوته وتلهب القوة جمрте، ولو أمكنتهم الغرة لاقتحموا إلينا الأهوال ولأخذونا من نواصينا ولجرونا على بطاح الأرض جر المحتطب حزم الوقود، كل ما تتحرك به ألسنتهم من قول لين يخرج من قلوب استوطنها الجبن، وتوجهه عزائم استولى عليها الخور، يكذبوننا المودة ويحتفرون لنا القبور، يدُّ قد بُسطت بالضراعة، وأخرى في قائم العضب ومقلة مسبلة بدمع كاذب، وأخرى تتحرى مواضع الأسلاب، هذا هو الودُّ الذي مزقه التخالف وتحاول أن ترفعه الحاجة، باءوا بإثم الغواية كما استقلوا بخزي النفاق.

أقام عبد الحميد بصرحه الممرد ثلاثة وثلاثين عامًا، كان كلما أنحى بشفرته على رقبة علت من جوانب ملكه صيحات الصائحين، الله أكبر الله أكبر، وكانت كلما غدَّتِ والودات أطفالهن ناداهم أولئك الأبرار: أسمنوا ضحاياكم. وكان الملك الأحمر بين أقطاع الضعاف من رعاياه تتساقط حوله الذبائح والمنابر تهتز بالأدعية والمدائح. قالوا في تمجيده: ظل الله في أرضه، وسلطان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، باني الكون، المتصف بصفات الملائكة، من عتبته بمنزلة الأفلاك، وقالوا في الدعاء له اللهم

أطل في العز أيامه وحكم سيوفه في رقاب أعدائه، وانصر عساكره وامدده بجنود من ملائكتك. ورعاياه المذبحون يسمعون وهم في آخر كل دعاء يقولون بفم رجل واحد آمين اللهم آمين، مولين وجوههم شطر القبلة شاخصة أبصارهم مبسوبة أكفهم، ونحن نقول: يا هؤلاء نحن مظلومون، فيقولون: أنتم كاذبون بل أنتم معتدون. وما فتئت الأمة المسكينة يقص زمان عبد الحميد من حواشيتها حتى أودى خيارها وبقي شرارها، وهم اليوم يكفرون الباء الملل ويحاولون أن يستعيدوا الكرة.

الأكل من كسب غيره وهو قاعد لا يُحمل نفسه عناء السعي لرزقه، وإذا علمت الأمة حقائق الأشياء وبصرت بضلالات أهل التعصب قبضت عنهم جدواها ومنعتهم ورد جودها، والقوم يعلمون ذلك ولا يدانيهم فيه ريب فمن أية الطرق يأتي نحوهم الإنصاف؟ لو جمعنا العمائم التي بالبلاد العثمانية وجعلنا بعضها فوق بعض بنينا حصناً يعجز عن هدمه أسطول إنكلترا بأسره، ما في هذه الجوزات ما يُرجى منه أقل الفوائد إلا آحاد لا يصعب تسميتها، وما بقي من ذلك الجمع العديد، فأنصار للاستبداد، سواءً عليهم حق وباطل، لا يعجبهم من الحياة الدنيا إلا الجفان أو ما يكون ثمنًا للجفان، أروني واحدًا من هؤلاء للمبردين يكون جادَ بدرهم واحد في خير يريده — يا بُعد ما تُمنى به النفوس — هذا والقوم كلهم مثقلون بالصف والبيض يجعلونها في أشداقهم كما تجعل القردة مأكلا في أشداقها خيفة خاطف يخطفها، ثم إذا التفت عليهم المحافل ألفينا كل عُثْنون كحديدة الفاس يضطرب غضبًا لرأي رآه أحد العقلاء، فكم من عَنَفَّة كَذَنب السمكة تهتز على أثرها وتغضب لغضبها، ما أشقانا بهذه المخلوقات!

يغشوننا ونغشهم، ختل بختل، كل فريق يود أن يحرز الغلبة على مضاده بحيلة يحتالها، ولبئست أسباب الفوز في هذه الحرب العوان اتفق المنافقون من أدعياء التقوى أن يُظهروا حسن النية ويبدوا جانب الود لمخالفهم، وذلك بعد أن شرت سيوف أبطال الحرية من النفوس وباعت، فلما أفرخ روعهم وثاب إليهم بأسهم السالف أسمعونا صريف أنيابهم وقلبو لنا صفحة الود، وأضحت تلك الألفاظ أحاديث مغتبق زهبت الكمية بلبه، أو أهازيج طير استطير من عشه فذهبت الريح بصداها.

أكل اللحم لا يغذوه النبات، والسمك لا يعيش في غير الماء ولو فرشوا له حدود الملائكة وجعلوا مساكنه سواد المُقل، والمعم لا يطيب له مقعد على متن طائفة ولا على ظهر دارجة، ومخادعة الناس بدعة من بدع عبد الحميد، وليس من الإنصاف أن نبغض الرجل لظلمه حتى نزيله عن سلطانه ثم نعاود شأنه ونستعيد سيرته.

وبعد فقد رأى قراء المقطم الأغر عجائب في نهج حكومتنا العثمانية — رعاها الله — تأتي بالواحدة من باهرات الحكم حتى لتعشى عندها الأبصار وتتضاءل أنوار الفهوم، وبيننا تلهج الألسن بإطرائها وتعتقد الخناصر على كل أعجوبة من مآثرها إذا بها كمثل الفصل المضحك في آخر رواية كلها حكم وكلها عبر. وما نريد أن نحصي تلك الخطيئات، وليس فينا شامت ولا بيننا عدو رقيب. إن لنا في مفاخرها ومخازيها لنصيبًا يصيب كل مستظل براية الهلال، غير أننا معيرون بهاتيك الخطيئات ملزمون من خصوم غير غافلين بإلزاماتها، لا حكمة نستبين بها المراد مما نرى ولا في أولي الأمر من يتكلفون بيانًا لما أشكل علينا، وليس لدينا من يدعي علم الغيب ولا من يستطيع كشفًا لما تخفيه الصدور.

واقعة العلامة الزهاوي ليست فذة في مواليد الشرور، ولكن لها أخوات تخالفها ظواهر وإن لم تخالفها حقائق، لقد وقع مثلها لصديقي العثماني الحر يوسف سامح بك أحد الموظفين في نظارة الحربية المصرية، ولو كان هذا الفاضل ممن قضى عليه شقاء الجد أن يقيم في بلادنا الدستورية لسمعنا على بعد الديار أنينه في سجنه وصليل السلاسل على سواعده. ويوسف سامح رجل من العثمانيين الأحرار الذين هاجروا من بلادهم، ورأوا في أرض مصر أكنافًا موطأة وجوانب مذلة فصدقها الخدمة وصدقته الجزاء. ولما انتشرت الأمة حريتها من كف سالبها وتباشر الناس بعهد جديد وصفو مقبل رأى أن يتحف إخوانه العثمانيين من العنصر التركي بكتاب جليل الفائدة جامع لأشتات الحكمة، وهو كتاب تحرير المرأة الذي وضعه العالم الحر المرحوم قاسم بك أمين، فترجمه إلى التركية بأجمل أسلوب، فأصدر مجلس الوكلاء بالأستانة قرارًا إداريًا يمنع به دخوله إلى الأقطار العثمانية، وقد علمنا أن الحكومة توخت هذا الجنف استرضاءً لفريق المتعصبين، فهذا قلم مذبذب تريد الحكومة الحرة أن تكسر شبّاته، والدستور رهين الإرادة، فيومًا هو بمنزلة الوحي ويومًا هو مهجور ومنسوخ، قاتل الله الأهواء.

لا ندري ما خطب حكامنا، يقودون أم يُقادون، الأمة قاصرة وقيّمها الحكومة، وإذا أطاع القيم أهواء القاصر تعطلت أحكام الحكمة، وما أرخي العنان لقوم حديثي عهد بالعق إلا اشتد جماحهم وتعذر كبجهم، وكما ضمنت الحكومة تعليم الأمة فرض عليها أن تضمن تربيته. إن لأهل الصلف المتزهدين والمتورعين من الخطل ما لا يُستطاع معه إحكام أمر، وحسب هؤلاء أن تُدرّ عليهم هبات المحسنين وأن يأتيهم رزقهم غداً، إن

يقنعوا فذلك الكفاف وإن يطمعوا فيما وراء ذلك فنصح نافع أو زجر رادع أو لجام مصرف في يد تعودت حبس الأعنة واقتياد الصعاب.

الأديان مناهج للناس إلى ما يُستطاع من الكمال، فإذا هي تجاوزت ذلك وأضحت سلعا يتجرون بها كان شرها أكثر من خيرها، وإن من أشد ما ينزل بالحر أن يُبلى بقوم لا تسمو مداركهم إلى مقاصده فيتعسفوا في تأويلها الشبهات، حتى إذا أعيته المناظرة وأعوزتهم الحجج عمدوا إلى الفساد فاستثاروا العامة إلى الوقعة وفزعوا إلى الختل والغر، وأكبر من هذا أن تكون الحكومة عوناً للمفسد على المصلح لا اعتقاداً بإيمانه ولا إعجاباً برأيه، بل تحبباً إليه وإقراراً بالعجز عن إخضاعه وتقويمه.

لقد ذهلت حكومتنا الدستورية عن الدستور في قضية الزهاوي، وفي كتاب المرأة الذي ترجمه يوسف سامح بك، ثم فعلت مثل ذلك بكتاب كان ترجمه صديقي العثماني الحر الدكتور عبد الله بك جودت، كفانا الله شر الآتية من الهفوات، فهي — ولا شك — أشد وأنكى.

قيل لرجل: لم لا تصلي؟ فقال: إن الله توعد المصلين في قرآنه الكريم إذ قال: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾، قالوا له: ولكن بقية الآية تنفي زعمك، وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قال: إنما ذكرت ما أحتاج إليه وتركت ما لا حاجة لي به. ولأحد الشعراء الأقدمين بيت في مثل هذا المعنى وهو قوله:

ما قال ربك ويلٌ للألي سكروا بل قال ربك ويلٌ للمصلينا

فهل تريد حكومتنا أن تجري في اتباع أحكام الدستور على هذا المنهاج، تحتفظ بمالها وتسهر عما عليها؟ إن هذا إلا ضلال مبين.

عمرو بن معدي كرب الزبيدي كان من الصحابة، توجه ذات يوم إلى صديق له فحياه بقوله: عم صباحاً، فقال الرجل لعمرو: أو لم يبدلنا الإسلام عن هذا بما هو خير منه، وهو السلام عليك، قال عمرو دعنا مما لا نعرف، هل لك في جدي مشوي وخمر معتقة؟ قال الرجل: أشرب الخمر وقد حرمها الله علينا في كتابه؟ قال عمرو: والله إني سمعت ما بين دفتي المصحف فما وجدت لها تحريماً غير أنه قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، فقلنا: لا.

لقد مضى على الهجرة ثلاثمائة وألف عام فأروني اليوم رجلاً يقول مثل ما قاله ذلك الصحابي ويبيت في مأمن من خطب يحل بساحته، أما أننا ليصدق فينا المثل الفرنسي: أشد تمسكاً بالملك من الملك.

لكل ذي فكر رأي يراه، فإن كان صواباً فالفوز له وإن كان خطأً فلا جناح عليه، والمدارك درجات بعضها فوق بعض، ودركات بعضها دون بعض، وإن أماننا لدستوراً يشمل حكمه رقاب الأتقياء وغير الأتقياء، حسبنا ذلك هدياً وحسبنا شرعاً، البار أخونا والفاجر أخونا، ورحمة الله وسعت كل شيء.

نُبئت أن رجلاً من أهل الفضل جمعهم محفل أدب ليلة نشر استفتاء العلامة الدكتور شبلي شميل، فأخذ كلٌّ يُظهر ما عنده، فقال قائل: إن الزهاوي رجل متبذل في دنياه، وقد كتب ما يعترض أصل الدين، وأرى أن نؤاخذ الحكومة العثمانية من غير هذه الوجهة، قلت هذا ينطق لسان حاله بقول ابن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أُرشد

تفتأ هذه الحشرات تأكل قلوبنا وتستطير آمالنا وتوهي عزائمنا، لولا ذمة توجب مواصلة الجهاد ونخوة تأبى إقرار الظلامة، فإن يُحرم إخواننا الذين هم في أوطاننا من ثمار ما تجود به كبريات العقول فإن تلك الكتب باقية خالدة، لا تُمحى كلماتها ولا تجفل معانيها، ومن صبر ثلاثة وثلاثين عاماً يصبر عشرة أخرى حتى يأتي الفرج، وإنه لآتٍ وأنوف المتعصبين راغمة، فاطمئني أيتها النفوس اطمئني.

الفصل الخامس

بعد الموت

أما آن أن يسترجع الدهر ما مضى فترجع آمال وتقوى عزائم
لقد كدت أنهي النفس عما تريده من النصح لولا ما تجر العمائم
وما زالت الأيام حربًا على النُهي فإن سالمت حينًا فختلًا تسالم
أرى الناس هاموا بالمعالي صباة ولا عجب أني كذلك هائم
وهذي طباع لا يُرجى انتزاعها تُنَاطُ بقوم إذ تُنَاطُ التَّمَائم
ستبقى بلاد الله تطلب منصفًا وهيهات أن ترضى بذاك الصوارم

بعد الليالي الطوال والسهاد المستديم والسقام المبرح وحوادث تلاحقت بها حوادث
يرجع طريد النوائب، على ظهره كفته الممزق، وفي يمينه قلمه غير المجهود ليستعيد في
التجاريب نوحاته. خلّطني جلدًا وما أنا بجلد، أهون بمن بدا غيرانَ مشتدًا ثم أمسى وانيًا
جزعًا، ابن الشرق كإخوته وما المشابه قومه بظالم.

كم نداء من ذي ود اخترق الجنادل ونفذ من حُجب الحياة، أهاب بي أهل النجدة
فاسمعوا، ولئن تخاذلت عني جنود الصروف، وعافتني أفواه الأجداث، فإن ذلك لتمام
الشقوة، لبيكم دعائي، اليوم أعاود ماضي شأني وأنتم سامعون.

كنت قبل أن يلم بي الضنى جمعت أشياء أريد أن أفيض في نقدها، رأيت ذاك الذي
وسم المؤيد بميسم من التعصب ينادي بأرفع صوته «نحن مسلمون قبل كل شيء»،
فنويت أن أعد الجواب.

ثم عادت نغمة الترك والعرب والخلافة العربية والأعلام المزركشة، وقامت بالآستانة
صحف الشباب تزعزع أركان الكون بصيحاتها، والعلم مرفوع بأيدي صبية يسخرون
من الراضي والساخط، فهممت أن أدعو إلى الرشاد.
ثم دوت في أذني استغاثات أولئك المظلومين الذين فصلَ ظلامتهم مندوب المقطم
الفاضل في إحدى رسائله، فتجددت ثورة الشباب في نفس ذهبت بنجدتها وقائع الدهر،
أطيرت الأظافر وأسيلت الدماء وتوالت السياط على أبدان تفرق على أديمها الشباب،
فقلت:

أفلا يزال السوط حاكمكم وأبو السياط بيلديز ذهباً
أفلا يزال الدهر يعجبكم ضربٌ ومضروب ومَن ضرباً
ونقول أحرار فنمدحكم لا حر فيكم، كلنا كذباً

ثم أتيت بهذه النفثة إلى أحد أساتذتنا الدكتور فارس نمر، فقال لي: يا ولي الدين،
دع العجلة واستصف الأناة، إذا أخذت فأخذ ولكن بعد ثقة، وإن أثنيت بخير فأثن
ولكن بعد ثقة، وهذا المقطم لا يتقرب إلى أحد ولا يملق أحداً، ولكنه عثماني مخلص في
عثمانيته، غير هيب ولا وجل، تمهل تمهل، إذا دعت الحاجة إلى هذا الغضب، فنحن —
ولا نزاع — سابقون، ولكن لا تستعجل الآن بالضرر، فكان كلام الأستاذ بمنزلة الدواء
على الفؤاد المريض، به استقر الجأش وعادت السكينة.
ولم تزل الكتب والرسائل تتوالى عليَّ من إخوان الحرية وفرسان الحق، تلك دعوات
لم يطاوعني تلقاءها إحجام ولا تتأقلت بي خطوات، وكان الحمام ممسكاً بخناق يريد
أن يطوف بي معاهد طافها الآباء والأجداد، ألا سقى الله تلك المعاهد من عهاده، غير أن
للنفوس اعتلاقاً بهذه الزخارف الباطلة، مال وبنون، ونحن نشقى بالمال والبنين.

ثم بدت ميمية الشاعر حافظ أفندي إبراهيم، هذه ثانية قصائده التي أنشدها احتفالاً
بجمعية رعاية الأطفال، حبذا الشعر تقف عنده البدائ حيارى: «قفا نبك» وأخواتها،
أودعت من القول في صوغ الكلام وتأليفه ما لا يسمو إليه حافظ، وميمية حافظ أودعت
من المعاني العصرية ما لم يُلهم به كل شاعر من ملوك الكلام في ماضيات الأيام.
سبحان من قلَّده مفاتيح البلاغة ومكَّنه من نواصي المعجزات.

لولا مخافة التهمة بالحسد لنافست حافظاً في هذه البدائع، وهيهات أن يُنافس فيها!

ليت حافظاً كان رضي من نعمة القلم بمكانه من البلاغة والفصاحة وترك ما دون ذلك لغيره من عشاق الشهرة، إذن يظل كالهندواني العضب لم يغش صفحته الصدا، ولم تتغلب على حقه صورة الباطل، وليته ترفع عن مدائح الناس وضناً بمجد لسانه أن يُذال إذا يظل كأولئك الذين في الغرب خفضت لهم الرءوس ودانت الرقاب، وتضاءل عند مجدهم مجد المتوجين من العباد.

الناس في حاجة إلى الصفاء والوداد، وكلاهما في حاجة إلى أن يترنم به الشاعر ذو القافية المظفرة كحافظ وغيره.

ولو وقف حافظ عن يميني، «وغيره» عن شمالي ونازلنا جنود التعصب لشردناها عن ديارها ولأخذنا أعلامها ورجعنا بأسلابها.

يا حافظ، يا حافظ، ما إلى المزيد من الشهرة سبيل، ولا لفضلك مكابر، ولكنك تجعل نفسك في غير موضعها، دع السياسة إن لم تكن فيها رشيداً، ودع المدائح، إن في أسلافك من أعجزك وأعجزني، ادعُ إلى الإخاء يحفظ لك النيل ذلك ويشهد لك به الهرمان، ولا تنكر لغرض خيراً أتى، كذا ينبغي أن يكون كبار الرجال.

التجاريب مفاتيح الأمور، والمريض لا يستطيع أن يكتب أكثر من هذا، وعفو القارئ أعظم من عجز العاجزين.

الفصل السادس

نعم الجود ولكن بئس من تركوا

يقول أناس إن كتاب التاريخ يُحصى الحسنات ويُحصى السيئات، كذبوا. ما يحصى إلا بمقدار ثم ينسى الطيب وينسى الخبيث إلى أن تهيج الشجون لساناً ناطقاً ويراغاً ماضياً فيذكر أولي الألباب، يا عقول ويا قلوب، لشد ما تتغلب عندك الأضداد من الحق والباطل فتتعاورك الشبهات ويصعب عليك القول الفصل، والدرهم والدينار، لعن الله الدرهم والدينار، يطلبان مكان الحرص أو منافذ الأهواء. الشرق مقتول بأسياف بنيه، مجده مجده، نهب مقسم بين عداته، وورثة معاليه وخزنة مفاخره بين سكرات الصبا وبين آلام الحسرات، ألا إلى الله المشتكى. قلوب أماتها الدهر فلا يبعثها منادٍ مسمّع ولا مستغيثٌ مسترجمٌ، ولا داعٍ إلى مكرمة ولا مرشد إلى محمدة، ما خطبك يا أيتها النفوس؟ ماذا دهاك يا غرائز؟ وما بك يا طباع؟

إن منا من كان شغله حمماً يستطيره على سطح بيته أو ديكاً يربيه ليضارب عليها ويراهن حتى محا الله آيات تلك المشاغل ووقع من دعاواه في حرج فخرجت آلاف الدنانير من كفه ربحاً حلالاً لكل طامع وكاسب، وإن منا من يذهب إلى منت كرلو فيخسر في المقامرة خمسة وعشرين ألف جنيه لا يبالي فقدها ولا يجد لها وجداً، ثم يحاسب سائقه على قليل من طعام، وإن منا من يقيم له حكومة في داره مع كاتبه وخادمه ويقضي حياته بمعزل عن واجب الرجل الحر، كل هؤلاء لا يُفرحهم إلا اللهو ولا يُحزنهم إلا موت ديك أو حمامة، أو ضياع صيد يفلت من أيديهم.

وإبراهيم الذي هجر راحته وباع حياته في خدمة وطنه وأقام بين أغوار اليمن وأنجدها يشتم روائع الشيخ والقيصوم لا تبقى له باقية ذكر، ولا يُسطر له في تاريخ الناس سطر، نحب التراث ولا نحب مستخلفه، كذا يكون الإنصاف؟

على أنني سأستوفي الكلام في فصول آتية فلينتظره القراء في مشارق الأرض ومغاربها، دعاني إلى هذا الكلام ما يقع باليمن: إن بها لداءً عقماً أعى الأطباء دواؤه، وإنها لكما قال الثقيفي في غابرات العصور: «أرى رءوساً حان اقتطافها وأرى الدماء تموج بين الغلاصم واللحي.» وا حر قلباه على تلك الرءوس وتلك الدماء الغالية! وإن لأهل اليمن عندي لوداً مكيناً تورثته من أب بعد أب، يعرف ذلك من يعرف إبراهيم، الذي ولي أمورهم حيناً من الدهر، وما كاتب هذه السطور إلا حفيده وأحد الذين ورثوا حبه لليمانيين.

ولقد عثرت على أوراق هي محفوظة عند أحد أبناء الأسرة اليعنكية، عليها ختم محمد علي الكبير، وهي مقيدة بأرقامها بالدفترخانة الخديوية، عرفت بها كيف ساس اليمن ذلك الفاتح، وأي طريق سلك حتى راض شامسها وكبح جامحها، وكانت هذه الأوراق إلى اليوم تحت حُجب النسيان، ولولا انتباه صاحبها إلى ما حوت لأذهب بأمانتها، ولم يلتفت إليها أحد ملوك الديكة وسواس منت كارلو.

أدع الآن ذلك جانباً، وأنادي حكومتنا العثمانية بمشهد من أبنائها: على رسلك، احبسي اليوم جنودك واستبقي دماء أبنائك، إن الحكمة تبلغ ما لا تبلغ القوة، وأنا أقف اليوم على تلك التهائم وأخاطب لك أبنائك العاصين، فإن أفلح فرمية من غير رام وإن تبلغ الشقوة حدها ففقد مثلي أخف من فقد أحقر من في أولئك الجنود.

نعم، عندي لليمانيين كلام يسمعونه في حينه، فلئن ذهبت إليهم لأذهبن أعزل غير مستصحب أحدًا ولأنازلن قرومهم بالحجة ولأخاطبهنهم بلسان عربي يهز المعاطف من نسل الأقبال وأبناء الملوك الحميرية.

ما أنا برجل الدماء ولا من حجاج الرأي، ولكن لدي تدبيراً أحكمته وأمرًا استجمعته، ولن أسير إلا مستوثقاً بعهود لا تخان، أن لا يخيبوا لمتظلم أملاً وأن لا يؤخروا إصلاحاً يراد، وأن لا يولوا تلك البلاد من لا يعرف لغتها ولا يدري أهواء أهلها ولا يقدر على أن يستصفي موداتهم ويسترضي قلوبهم، فإلا تفعل الحكومة ما تطالب به من العدل والإنصاف فلا نصير لها إلا السيف، والسيف يحز الرقاب ويخلي الربوع ويقري الوحوش والنسور أجساد الناس ويرفع استغاثات الأرامل واليتامى إلى ملك الملوك، إلى من لا تخفى عليه خافية.

نعم الجدود ولكن بئس مَن تركوا

فلتسألني الحكومة عما أريد أن أعمله أجبها بما يزيل الشكوك ولا يدع لريبة
مستقرًا، ما في الوقت من سعة ولا في الإهمال من خير، هذا رأي رأيته وعقول الناس
تستولد الآراء، ثم هو إحدى التجارب، والتجارب أمهات الحقائق، والله بيده عواقب
الأمر.

الفصل السابع

كيف يموت الأدباء في الشرق

بلغ من بغضي للشعر أن صرت أعرض عن سوانح معانيه في لوامع قوافيه، القاعد بالحدود عن منازل الشرف، المتواكل بالعزمات عن بلوغ نهايات الإرب، إحدى فتن الخيال، تجري بها البدائنه فتتلقاها مسامع بالقبول وتتلقاها مسامع بالملل، أبعد به وبطلابه.

يتهاذى أمراء الذهب بين «شولر» وبين «سبلنددبار» تساقط أعطافهم الجنيهاات ويطوفون حول معاهد الصبوة في عواصم الغرب من «منت كارلو» إلى منت كارلو، ثم يأوون إلى بيوت كثرت فيها الديكة والحماثم، ثم يصبحون في لزباتهم يهبون المال في دعاوي ومخاضات، فطلاق وزواج وميراث وشركة، يتخلل ذلك كله لعب الورق واستشارة الوكيل وإدلال الكاتب، وما أدراك ما الكاتب! وبيع الأطيان واقتراض المال، بدرات تفيض العسجد وتنفجر عن ذوب اللجين، والشاعر يريد أن يبيع ديوانه بقرص من الطعمية فلا يجد مشترياً، والكاتب يعرض دفاتره مجاناً فلا يرى قارئاً، فسبحان الله!

علم من أعلام العراق، هو أبو القصائد المحبرة والقوافي المحكمة، نزيل بمصر، مقيم في دار حزنه يعالج أيامه ويعاني شداؤها، وليس بمصر من يقول له أين أصبحت أيها الأديب العظيم، أحمد مفتاح، رجل البلاغة يموت ويُدفن ولم تكتب خبر وفاته جريدة من الجرائد فيما علمت، ومحمد إمام العبد، وهو شاعر مجيد يُوسد بالأمس التراب ولا يتقدم أحد ليقيم له ليالي مآتمه. وفي بلاد الغرب يصنعون التماثيل للشعراء ويسمون بأسمائهم الشوارع والدوارع، ويجعلون لميلادهم ولموتهم أياماً في كل سنة هي بمنزلة أيام الأعياد، ويقولون بمصر الدستور والجلاء والمؤتمر، وتكتب الجرائد ليحيا وليسقط، من يحيا ومن يسقط أيها المساكين؟

لكل امرئ في هذه الأمة موضع يميزه، والناس في درجاتهم متقاربون، وليس رجل ينكره معارفه ويتجافاه أقرب أقاربه إلا الأديب، فهو إذا برز على أقرانه حسدوه، وإن أقصر عنهم حقروه، وإن ولج جمعاً جللت فيه أبصار المستهزئين، والله في خلقه أناس يفخرون بملابسهم وليست بصنع أيديهم ولا أنسجتها من نسجهم، ولا أثمانها من كسبهم، ولا زينتها تجمل ما قبح من أشكالهم، أولئك يطئون الهامات ويدلون الرقاب ويتهادون في كل مزدحم تهادي الكواكب الرود في الوشي والبرود، طواويس الرجال يقضون طوال الأعوام في ديوان الحياة ثم يخرجون منه كما تخرج الأنعام من تحت السقائف، لا متزودين ولا مستخلفين، إلى حيث ألفت رحلها.

أعرف أناساً كانوا وضعوا للديكة أسماء، مثل عنتره وعبد هياف وأبي زيد، وهم لا يعرفون من أسماء ملوك أوروبا خمسة، وأعرف غيرهم كانوا يتعلمون من أنواع الحمام كالهزاز والعنبري والغزاري ما لو علموا بقدرة من المفردات لفاقوا علماء اللغة، وفيهم من إذا نظر توقعه ظنه توقع غير، هؤلاء تمر بهم الخلائق كما تمر بهم صور السينما توغراف، فهم يرون ولكن لا يدركون، فخارهم أبهة ولائهم، وأن يُقال فلان أنفق على وليمته كذا من الجنيهاً، وحلاهم ثيابهم بها يتنافسون إذا جمعتهم الجامع، يقول قائلهم أنا فصلت ملابسني هذه عند «كولا كوت» فيساجله الآخر قائلاً وأنا فصلت ثيابي هذه عند «ريبو»، اسمعي يا أمم الشرق واعجبي يا أمم الغرب، وميدي يا رواسي الأرض وأعلامها، وغضيي يا بحارها ويا أنهارها، عندي كثير من هذه الأحاديث، وما سيأتي أجلب للعبرات وأبقى للحسرات، منك الصبر ومنى الشكاة.

تنظر إلى الكتاب المطبوع بإحدى اللغات الأجنبية فترى مكتوباً على جلده الطبعة العشرون والطبعة الخمسون وأكثر من ذلك، وقد يكون عدد نسخ الكتاب في الطبعة الواحدة عشرة آلاف على الأقل، وليس في الشرق كتاب طُبع مرتين إلا نادراً أو ما كان متضمناً للمجون، وجرائدنا ياكل مشتركوها أثمان اشتراكهم فيها، ويكتفي قراؤها بنسخ يأخذونها من المشتركين أو يقرءونها في القهوات، وقد يبالغ في الغرابة بعضهم فيريد الجريدة مكتوباً عليها «مرفوضة» بعد أن يكون قرأها أشهراً وأياماً، وأغرب منهم من جاءته جريدة «الجامعة العثمانية»، وهي جريدة تنشرها «الجامعة العثمانية» في بيروت وتعطيها من دون ثمن، ويكتب على غلافها مجاناً، فرد الرجل الجريدة بعد أن كتب على غلافها بالعربية والفرنساوية مرفوضة، رفض الفضل ورفض الكرامة، لا طال دُنب زمانه، ولم يخجله كرم الذين أحسنوا بها عليه إحساناً لم يقع على مستحقه، ومثل هؤلاء المخلوقات كثير بيننا ولا فخر.

يموت أدباؤنا وتُطفأ أنوار المعاني في عقولهم وتبقى بيوتهم خالية وأجداثهم داثرة، وليس فينا من تحدثه نفسه بأن ينقب عن آثارهم، وينشر للأمة ما طوي من معارفهم؛ قراراً بفضلهم وتخليداً لذكرهم واستفادة من آثار قرائحهم، ونحاول بعد ذلك أن نجاري الأمم أو أن نشبه عباد الله، ما أكبر جهلنا بأقدارنا، وما أبعدنا عن مواضع الإنصاف!

لا أدب العراق أجدته فرائده، ولا الأستاذ مفتاح هنأته بلاغته، ولا إمام العبد أغناه شعره، وإن نسخة من قصة القاضي والحرامي أو قصة دليّة المحتالة أو قصة هف طلع النهار لأحب إلى عامتنا، وأشهى إلى خاصتنا من درر هؤلاء العظماء وجواهرهم وأدعى للشجون، ثم أبعث للطرب من قصائدهم وفصولهم، سقاهاهم الله، رعاهاهم الله، عاشوا مظلومين وماتوا مظلومين، وأودعت بطون المقابر كنوزاً يتباهى بأمثالها ملوك الأرض. يُروى أن بعض الإنكليز يقول لو خُيرنا بين أن نخسر الهند كلها أو نخسر شكسبير لاخترنا خسارتنا للهند ولأبقينا شاعرنا عوضاً عنها، ونحن ماذا نقول؟! نقول لتحيّا الديكة والحمائم، أم نصيح ليحيّا الدستور؟

إنّا لنطمع اليوم في أن ننال ما لا يُتاح لنا إلا بعد خمسين عاماً، فمثلاً مثل جماعة من العميان، قيل إنهم ركبوا أحد المعابر (القوارب) ليعبروا النيل، فقال قائلهم: هل لكم في الخروج من المركب من غير أن تدفعوا أجراً؟ قالوا بلي، قال: إذن فاسمعوا لما أقول، إذا قارب المعبر الشاطئ صاح النوتي: «فلق»، فثبوا هناك وثبة رجل واحد، وتفرقوا هرباً، واعلموا أنه لا يترك معبره ويعدو وراءكم، فقبلوا المشورة، وكان النوتي يسمع المؤامرة وهم لا يشعرون، فلما توسط النهر صاح: «فلق»، فوثب العميان فوقعوا في البحر وغرقوا، وإنني لأخشى أن ينادينا الغرور نداء النوتي فنغرق غرق العميان.

الأمة في حاجة إلى نوابغها، ونوابغها غرباء بينها، والصوت الأرّن والقول المسموع ما يهتف به قوم صممت ألبابهم ونطقت ألسنتهم، هم المسيطرون وهم الزعماء.

حسب الأديب في الشرق نعتاً تُكال له كيل الحشف، فهو الأديب الفاضل والشاعر البليغ والكاآب البارع واللوزعي والألمعي وغير ذلك، وليت هذه النعوت تُجّبي لمن تصدق فيه، أو فيمن تكاد تصدق فيه، ولكنه مشارك فيها مشاركة الغبن، أهل البلدة كلهم أدباء فضلاء بلغاء فصحاء، ما سلم من ذلك ملك ولا سوقة، وأظن هذه هي المساواة التي يطلبها مجانين الدستور لا المساواة في الحقوق التي يثني عليها أهل الإنصاف.

ألا من مبلغ عني كل أديب في الشرق أنه أديب، وأنه فاضل وأنه لودعي وأنه ألمعي وأنه فصيح وأنه بليغ، وأنه عند الناس وجوده مثل عدمه، وأنه أهون على أمراء الذهب من ديك من ديكة الهند أو من حمامة من حمام اليمن.

كنت ذات يوم راجعاً من دار البريد وفي يدي سيكارة هي أخرى أخواتها، فمر بجانب رجل يسرع في مشيته فاستطارها من يدي حتى وقعت على الأرض، وكان اليوم شديد الهاجرة لافح الحر، فلما توسطت الشارع رأيت عربة نظيفة فيها رجل من رعاع القوم وأمامه اثنان من الإوز، ثلاث رفقة في خير عربة يقودها جوادان مطهَّمان، فرفعت طرفي إلى السماء وقلت: يا رب تلهمني الشعر، وتُجري يراعي بما يستطيع من النثر، وتجعل عبادك يدعونني بالأديب إن صدقاً وإن كذباً، ثم أرى أنني أحقر من الإوز في هذا الشرق! ثم انصرفت صابراً.

هذا ميدان واسع، يتعب الجائل في أرجائه، ولولا حقوق للأدب وأهله ما سطرته، ثلاثة إخوان، مكروب ودفينان، أما الرثاء فبعض ما يجب، ولن يفوتني ما استطعت منه، وأما النحيب فإنني سوف أنتحب، فمن لي بمن يساجلني الدمع ويشاركني في الشكاية، أما إننا لمظلومون.

الفصل الثامن

ويل للناس من الناس

يريد الناس في الدنيا هناءً
حياة حاربتهم منذ كانت
وآمالٌ تغرهم عجاف
وكم من مستنيل ليس يُعطى
تكاثرت الهموم فلا يراع
أماناً أيها الخصم المعادي
أإن رغبوا إليك رغبت عنهم
يمني الناس بعضهم بخير
فما للخير في الدنيا أوان
ولكن الشباب له جماح
يشد عنانه رائئ جميع

ويأبى أن يجود به الزمانُ
وحظ حاربوه منذ كانوا
وأحداثٌ تكذبها سمانُ
وكم من مستعين لا يُعانُ
يوفيها الشكاة ولا لسانُ
إذا دان العدى وجب الأمانُ
لقد هانت رغائبهم وهانوا
ألا كذبوا على بعض ومانوا
ولا للخير في الأخرى أوانُ
ليالي ثم يعقبه الحرانُ
إلى أمد فيسترخي العنانُ

* * *

وداع جاء يدعوني لنصح
تعبت من الكلام فليس يجدي
وكانت صبوّة ونزعت عنها
وما أسفي على عهد تقضى
ظلمت أمنيّه دهرًا طويلاً

وقد وهت النهى وهى البنانُ
كما أملت نظم أو بيانُ
فها أنا لا أدين ولا أدانُ
ولكن صنت عهدًا لا يُصانُ
وكننت أظن أني لا أخانُ

* * *

التجارب

ودار لا يزول القتل عنها	كأن الحرب فيها مهرجانٌ
أهاب بها اليراع فلم تجبه	وناداهـا فجاوبت السنـانُ
تظل بها السواعد عاملات	يصرفها ضرابٌ أو طعانُ
بكت عيني الشباب وحين جفت	مدامعها غدا يبكي الجبانُ
لعمرك ما لذي نصح مكان	ولا للنصح في الدنيا مكانُ
فدعني إن آمالي استكفت	فلي شأنٌ ولآمال شأنُ

الفصل التاسع

إحدى عواصف الضمير

أجل إننا خاطئون، صدق لسان الحال وشهدت التجارب، من ذا الذي يرى عدوه يغدو ويروح أمام داره، ينتزعه الرصاصة بعد الرصاصة ويعلم أنه لا محالة داهمه يوماً إذا ضاقت به الحيل وأعياء طول الاصطبار، ثم يدع باباً مفتوحاً لا حارس عليه، أكنّا نرجي أن تأخذ عدونا رحمة بنا، أم كنا نحسب أن سيقف أمامنا ويحيينا بالورد والآس؟! إنا إذن مجانين.

قوم عبثوا فيالقهم واستحثوا سابحاتهم وجاءوا يمتطروننا قنابل ويصلوننا ناراً، طمعاً في أرض لا تربتها خصبة ولا مأوها عذب، نهباً واغتصاباً، يطئون الخدود المعقرة ويمشون على العظام النخرة، لم تسترجعهم آداب العصر العشرين، ولا نفذت إلى قلوبهم صيحات الساخطين من أبنائه، يستنيمون إذا عجزوا ويفتكون إذا قدروا، قد استحلوا بلداً غاروا عليها؛ لأن أهلها عرب، ولأن حكامها ترك، فكانوا فيها أشد خشونة من أهل القرون البائدة.

مضت خمسة شهور ونحن مع إيطاليا في حرب، قد أعدت لنا الموت في ألوانه المختلفة، ونحن ماذا أعدنا لها، سوى فئة قليلة تغذوها الفدائد ويسقيها الغيث، تسيل نفوسها على زرق الأسنة دوننا ونحن كعجائز الولاثم، نأكل ونحملق، وفي أم عواصمنا أناس أعطوا الله مواثيقهم لا يتركون هذه الدولة وفيها من الحياة بقية، الأمم المحبة لنا تنصح، وأهل الرأي منا يرشدونهم، ولكنهم حرنوا حراناً، لا يريدون أن يتحولوا عن وجهتهم.

أنحن مخلصون لهذه الدولة؟ كلا ثم كلا، يا بُعد ما بين الإخلاص وبين هذه القلوب! إن نحن إلا أقوام إذا صفا الدهر لنا أياماً فخرنا بغير فخر، وادعينا ما ليس من طباعنا، كم بذلنا في سبيل الدفاع عن طرابلس، لولا ما ندبت به أكف سراة

مصر وسائر بنيتها من المال لجفت أكباد أبطالنا في حومات الوغي، قصور شاهقة أظلت شطي البسفور وذهب مذخور ونفائس مصنونة في خزانات من الحديد، وعندنا أصحاب الدولة والعطوفة والسعادة والعزة والرفعة غصت بهم مجالس الشرف لم تسنح نفوسهم بنصف ما سنحت به أنفس المصريين، وكان قائلنا يقول قبل اضطرام الحرب: ألا لا تجهلن علينا إيطاليا، ألا لترجعن إلى صوابها، أما لنقومن أما لنفعلن، فلما جهلت إيطاليا ولم ترجع إلى صوابها ملأنا الدنيا صياحًا، وأعولنا إعوال الثاكلات، وذهب وعيدنا كنفتة مصدور في ريح عاصف.

أي بني بلادي، لا أكذبكم، إذا كان أغش الناس لكم أحبهم إليكم، فهذا قلم لا يعلم تلك المسالك، اختلفنا وجوهاً وأشكالاً، ولكننا اتفقنا طباعاً وغرائز، يا ويل المخلص العاقل بيننا! يرى ويفهم ويقول فلا يُسمع، إنما يطربنا نغم المادحين، سواءً علينا صدق أم لم يصدق، إنما نريد أن نمدح، ومن وقف بيننا موقف الناصح الأمين تهاوت على قفاه الأكف حتى تبقى على أديمه وسومًا وندوبًا.

يا ويلنا! إذا برزنا إلى ميادين الحفاظ وسلاحنا عبراتنا، فما نستبقي للعقائل التي في الخدور، هذه رقة لا الحضارة مصدرها ولا الحكمة أصلها، غير أن العجز، ذاك المسكر الذي أمال الأروس على المناكب هو الذي يجمع تلك العبرات، نيل بها أعقاب الجدود المولية، ولبئست حيلة المحتال، كل قطرة من تلك الدموع تكون كلمة ذم تزداد في صحائف تاريخنا.

إذا جاء ميعاد الجدل في ميزانية الحربية والبحرية وقف ناظرها يستنديان أكف الأمة لزيادة الإنفاق، والإنفاق لدينا عن سعة، فما لبيروت، الثغر الباسم في محيا الملك العثماني تلم به دوارع الدولة المحاربة، فترمي بصواعقها وليس على بابها سوى دارعتين، ما ضمت أضلاعهما غير الهواء؟! لئن كان إيجاد أسطول يزود عن بيضة هذا الملك يحتاج إلى زمان طويل أفلا تستطيع الدولة أن ترفع على شط بيروت حصنين صغيرين تجعل فيهما بعض المدافع من معيار ١٣ عقدة فتضطر تلك الدوارع إلى الوقوف مكانها، وتحمي المدينة وأهلها شر البلاء.

مُدت إلى دولتنا الأكف المصافحة تخطب ودها وتعرض عليها معونتها قبل الحرب وبعدها، ولكنها غلبت على أمرها في قبول الود، فوقفت موقف المرتاب، لا تدري ما تحيز، أهذا مقام الشك؟ أفلم يبدُ لنا اليقين؟ ومتى تطمئن قلوبنا إلى إخلاص الناس لنا؟ ما أخال أن هذه القلوب تطمئن إلى شيء، أيام تمضي سراعًا وفرص متتالية، ولما نعزم ولما نحزم، ما هذه السياسة؟

لم نتدبر أمرنا بعدة من حزم ولا من قوة، قد تركنا الأمور تجري في فوضاها
غير أن الموت يدنو منا دنوًا، قصارى هممنا أن ننشر طُرفًا من أخبار وقائع جرت في
ميادين القتال، والعدو يسوق الجند بعد الجند، لا أدري متى يتهيا لنا أن نغضب؟!
أليس من فاضح الخزي أن يصبح كثير من الناس يترحمون على أيام عبد الحميد
— ولقد صدقوا — وما يجري على زمان كبرائنا يكاد يُجري دموع عبد الحميد،
أبو الظلم والاعتساف، أقام في قصره محجوبًا إلا عن عيون تعود أن يغازلها، فكان
لا يعتريه الحياء، لكن رجالنا يظهرون كأقمار التم في آفاقها، فكان من الشرف أن
يخلجوا، أما أن يُصان الملك على ما وجدوه، لا نطمع في زيادة، ولكن النعمة العظمى
أن لا ينقص، فإذا أعجزهم هذا القدر من حسن السياسة، فليدعوا تلك المقاعد، غيرهم
أولى بها.

الفصل العاشر

التكبر وحادثة النعمة

لا بد من التنقل إلى الاجتماعيات، فقد تضجر النفوس أساليب السياسة، ثم نحن إلى الاجتماعيات أشد منا حاجة إلى السياسيات، طال عهدي بفصول كنت أريدها فأجدها، ها أنا اليوم تصيبيني الذكرى وتجدد حنيني الصبوة فأرجع إلى التجاريب، بعد أن طال بيننا التهاجر.

أريد أن أصف التكبر وحادثة النعمة، وليس عندي وصف يرضيني؛ لأن الذين وصفوا التكبر وصفوه غاضبين، وأنا أريد أن أصفه هازئاً لا غاضباً، ويبقى لي شيء أتم به الكلام في حادثة النعمة.

التكبر ينشأ في نفس المرء من أشياء كثيرة، أشدها الحمق، ثم الاغترار بالانتقال من الضعة إلى الرفعة، ثم محاولة العزة عند الناس.

المتكبر ينظر إلى أعطافه ويأخذ في تغيير قعوده ونهوضه ومشيه ووقوفه حتى يستضحك الناظر؛ لأن النفس إذا خلا منها موضع الفضل وباتت الشمائل معطلة من زينة الأخلاق استمكن التكبر وبدت غرائب.

عرفت رجلاً تكبر بعد عناية أصابته فرأيته في أحد مجالسه وما زال ينحرف في قعوده ويتلوى في توجهه حتى انشق بنطلونه، وافتّر عن بياض قميصه، فكان عابساً من فوق وباسماً من تحت، وكاد أهل المجلس أن يموتوا من شدة الضحك.

ولقد رأيت أناساً من ذوي الألقاب المستحدثة يتكبرون، فهالني الأمر، فرحت أتحرى فيهم شيئاً من النبل أو الفضل أتخذه عذراً لهم، فإذا عقول بخواتم ربها، لم تمسها فائدة، وإذا ألسن يتساقط منها الحديث كجلمود صخر حطه السيل من عل، وإذا وجوه صفراء، كل وجه منها كإمساكية رمضان، وإذا عيون ما أومض فيها بارق من الذكاء، فقلت في نفسي: ما أشد عبث الدهر! يرفع هؤلاء من مواضعهم ثم يجلسهم

مجالس ما خلّقوا لها ليفضحهم على رءوس الأشهاد، ولو تركهم حيث ولدوا لكان أشد رحمة بهم.

إن لقب باشا في هذا البلد أشد إسكارًا للمرء من زجاجة الويسكي، يناله القروي الذي رُبي بين الأنعام، وسار يستحث المحراث وتقوم جنباه على مضاجع الهشيم تحت سقوف الأعشاش، ثم ينزل مصرًا أو يطلع الثغر فيرفل في حُلة تكاد تتحل عن أعطافه، يخال رائيه أن ثيابه تمشي وحدها، فيطغى ثم يطغى، ويأتي طغيانه على شكله المضحك وكلامه السمج، كالخضاب على رأس الأصلع، فهذا فضح نفسه ولا يشعر أنه فضحها؛ لأنه يرى ضحك الناس منه فيحسبه إعجابًا بفضله.

يا سيدي الباشا، لو تركت هذا الخان وتبوأت عرش بلقيس تنقله إلى إيوان كسرى، واتخذت من حمرة الشفق بُردك ومن نجوم الأفق أزرارك، وتقلدت لامع البرق حسامًا وجعلت قوس قُزح حمائله، ما زادك في عيني إجلالًا مثل أدب أجنبي من فمك، وخلق كريم أتبينه في طبعك، وإنني ليزهدني في كثير من أمثالك ما بيننا من اختلاف الحال، أنا أكتب وهم لا يفهمون، وأنا أخلد وهم يفنون، وأنا قديم عهد بالنعمة وهم حديثو عهد بها، وأنا يكرر ذكرى كل ناطق بالضاد، وليس فيهم من جاوز ذكره آخر الزقاق الذي يسكنه، أتحدث بنعمة الله، تأدية لشكره، فأين أنت مني حتى تتناول عليّ؟ وزراء الغرب وأغنياؤهم وأعيانهم يتواضعون لمن يغشى منازلهم، وهم لم يبلغوا من الرفعة إلا بالجد والكد وسهر الليالي، وأنت قبّلت الأذيال ولا تزال تقبلها، فما يرفعك فوق أهل الرفعة.

ألا ترى ملوك الغرب كيف يتواضعون فيكلم الملك منهم الجندي، ويضع يده على كتفه ويقول له بني وأخي؟ ألا ترى سمو أمير البلاد، ما حظي بلثم يمينه أحد إلا خرج ولسانه شاكر وقلبه منشرح، ولكني — أستغفر الله إليك — لقد قايستك مع غير نظير، ولا أطمع أن تسمو نفسك إلى أكثر مما خلّقت له، فكن حيث يسر لك أن تكون، مكانك من الطبع أولى لك.

هذا حديث أتى عرضًا، وها أنا منتقل إلى غيره، شجو في الفؤاد، فاض ثم تدفق، فوا حرّ قلباه! كم يعاني المتأمل حالات الناس من سوء أخلاقهم! التكبر وحدائفة النعمة، بئس القائدان إلى العماية.

السيدات يتجملن بالثياب وبالحلي، والرجال يتجملن بالأخلاق، وإن أفتن السيدات أنصرهن أخلاقًا وأطيبهن شمائل، تلك التي يتضائل عند نور نفسها لمعان جواهرها، فما ظنك بالرجال؟

ربّ كرسيّ يضطرب فوقه حديث النعمة وكأنه جالس على قرن الثور، لو اتخذ درجة لركوب الخيل لكان أرفع قدرًا، ورب متكأ يغوص فيه حديث النعمة لو تحول مربطًا لجواد لكان أشرف قدرًا، حداثة النعمة فتنة من شر الفتن، ولكن الشرق مظلوم، محاسنه أقل من مساوئ الغرب، وهو غير أن مختال بها، يا مطلع الشمس وموطن المجد، متى يغنيك الله عن الغرائق ويبعث فيك مثل أولئك؟ إنك لجدير بالرحمة.

الفصل الحادي عشر

بين الوحشين الأب والزوج

ألمَّ بها في حسننها وشبابها
فلما مشى من قلبه نحو قلبها
دعاها وستر التيه أسبل دونها
ولو لم يحاول ذلك القلب باطشًا
غزالة وإدٍ في حبائل قانص
أقام الليالي وهي في قيد أسره
تضن ويسخو بالوداد وهكذا
قضاها له الظلم الذي كان قاضيًا
تقضى ربيع العمر في غير روضه
فيا حسرتا للغصن يذبل وحده
تجاوز غايات الثلاثين جائز
مضى حكمه لا أرجع الله حكمه

كوردة بستان جنتها أنامله
رسول الهوى خابت لديه وسائله
فما زال حتى رفع الستر سابله
لحال على رغم الخلافة حائله
تبث لغزلان الصريم حبائله
يغازلها لكنها لا تغازله
يقابل قلب نافر من يقابله
وذلك عهد أظلم الناس عادله
ومات وما ناحت عليه بلابله
وتبقى عليه ناضرات غلائله
أحبته لو أنصفتة عواذله
أواخره مدمومة وأوائله

رحمة الله عليك يا «آلبوز» بك، رجل جثته أعظم من الحمل المصري أربع مرات، ذو
لحية كأنها الأجمة، ووجه كأنه ميدان القتال، وشكل لا يشابه أحد الأشكال الهندسية،
لم يركب عربة إلا كسرهما إما صاعدًا أو نازلًا، أكثر علمه باللغة الجركسية ولا يعلم
منها أكثر من اثنتي عشرة كلمة، عرفته بسيواس نُفيت إليها قبله ونُفي إليها بعدي،
وكننت أكثر عباد الله تعجبًا من نكبة «آلبوز»؛ لأنه كان حما السلطان عبد الحميد، وجد
الأمير نور الدين أفندي لأمه، فلما علمت أن الحكومة جعلت راتبه مائة وخمسين جنيهاً
في الشهر بطل تعجبي وتمنيت لكل أحبتي مثل نفيه.

أخذنا نتزاور وتحاب أهلنا، فبلغني أن له زوجتين هما آيتان في حسن الخلق والخلق، ما رأتهما سيدة إلا أحلتها مكان الإجلال، فكان ألبوز بك كالأكمة تختفي وراءها هاتان الزهرتان، وإنما نُفي إلى سيواس لخصام وقع بينه وبين بعض المقربين، وإن منهم يومئذٍ لجمعاً لو اجتمع على طود لأماله على قواعده.

إن للتيجان بين رعوس الجبابرة وأقدام الغواني تنقلات تحدثها الصبا، وكم من حريص ملك في فروق يهبه جملة لثغر ضاحك وما أقبلت السرائر على دول الشرق إلا وولت عنها الجدود، وبذا تبتدئ قصة المرحوم «ألبوز». نشأت له ثلاث بنات، كبراهن ذات جمال يستهوي قلوب أهل الورع، فوصف جمالها لعبد الحميد وهي طفلة، فما أوماً إليها بطرف سبابته إيماءة واحدة إلا وقد أُلقي بها بين يديه، ثم فاضت مواهبه على والديها فيضاً، فأنعم على أبيها برتبة الميرالي وأدخل في حرس القصر السلطاني، غير أن نفس «ألبوز» بك ترفعت عن الوشاية، فبقي مكانه ولم يترق في الرتب، وحيل بين الطفلة ووالديها، ما سألها زيارتها إلا غُلا بالمواعيد الكاذبة، ومرت الأعياد وهما يرجوان التلاقي بها فلم يقدر التلاقي، وأتت محنة النفي ولم يزودوا بنظرة إلى غصنهما الرطب في مغرسه الذي نُقل إليه، وإذا هي يوماً قد وضعت الأمير نور الدين، متقدم الذكر في هذا المقال، وعقد عقدها على سلطان العثمانيين فصارت ثالثة نسائه، اليوم أوفى عبد الحميد على باب السبعين، وهي لا تزال في أوائل العشرين.

سمعت أنين ألبوز بك أيام المحنة، فقلت هذا أول طود يتألم، خُبرت عن حزن جرمه فقلت درة تذوب بغير لهب، وكم تمنى ذاك القلبان لقاء ساعة فضع بها الجبار، اجث ذلك الغصن الأهيف من منبته، فلما بات في قبضته حاول أن يميله إليه فاستعصى، وما زال يجاذبه السلطانين من ذهب وقوة حتى استماله بالقوة، وما هي استماله ولكنها إذلال، تتبدى على مثل عرش بلقيس، مستقرة بقصر «يلديز» تضم بين ذراعيها فرعاً من شجرة عثمان الباسقة، نعم الظل غير أنه محرق، وحبذا الجاه ولكن حماه موحش. حدثني ابن ألبوز بك، قال: دخلت القصر فانتهاوا بي إلى ابن أختي الأمير وهو في الثامنة من عمره، فأجلسني أمامه في عربته وطاف بي الحديقة، وقال سأسأل مولاي أن يجعلك لي ياوراً، وحين أنس خلوة همس في أذني: إن والدتي مشتاقة إليك، لم تنسك أبداً، وهي توصيك أن تحسن التعلم وأن تكون نابغاً بين نظرائك، وكان ابن ألبوز بك يحدثني وعيناه مغرورقتان في الدموع، قلت: ذهب وصاة أختك في الريح، هل جاء المسكينة أن أخاها لا يحسن الهجاء؟

تواقعت قنابل جيش الحرية على أسوار الملك المستبد وبينها أنفُس تدعو لراميتها بالتسديد، وأبت بعد ذلك أكثر نساء الملك المخلوع أن يشاركنه في محنته وأن يسكن معه في سجنه، فكانت بنت آلـبوز بك فيمن خرجن من قصر الأتيني رغبة في الحرية، أبين أن يتحرر العثمانيون والعثمانيات من أسر الظلم وأن يبقين وحدهن أسيرات. يا أسود سلانيك ومناستر، إن وراء السجون لمكربات كشفتم عنهن الكرب، أن رءوسًا عُقدت عليها التيجان تُحنى لديكم اليوم إجلالًا. سمح الزمان للوالدين بقاء تمنياه طويلاً، فلما شُفيت النفس من ألم الفراق رحل آلـبوز بك إلى الحجاز فمات في طريقه، وطابت أرجاء الحرية للحمامة المروعة بين الوحشين الأب والزوج، فكم قبلة شوق من شفتي الأم الوالهة تستقر على جبين البنت الوفية، سلام على تلك الدار التي اجتمع فيها الشمل، إنها لقراراة الصفو والهناء.

الفصل الثاني عشر

ما أكثر خطوبك يا فروق!

اليوم يبكييني ويبكييني الغدُ	نفدت دموعي والأسى لا ينفد
أَكْذاك نارك كل يوم تُوقدُ	بالله يا وطني أما لك راحم
مَنْ يعرفونك واجدٌ أو موجدُ	وجدي عليك ولستُ وحدي واجدًا
فإذا صبوت فأني حسن أنشدُ	ذهبت محاسنك التي أنشدتها
إن كنت تجده فما أنا أجحدُ	إن يظلموك فكم أصابك ظلمهم
فلعهدنا بك للكواكب تصعدُ	أو ينزلوا بك للحضيض خيانة
ما ساد في هذي المنازل مفسدُ	لو كان في هذي المنازل مصلح
نار ستُحرق في لظاها الأكبدُ	إن يحرقوها ظالمين فبعدها
كلا، ولا لي في البرية منجدُ	أفروق ما لك في البرية منجد
سادوا وأكثرهم بأرضك أعبدُ	فستُظلمين كما ظُلمت بمعشر

كم حريق وكم بلاء، أمصباح فروق هذه؟ أكذا دابها الدهر؟ لا تخمد إلا تضطرم، فنيت أو كادت، اليوم ينكرها عارفها، أكل هذا بيد القدر؟ أكذا قُضي عليها يروّع فيها النيام تحت ظلمات الليالي؟ ما آوت فتة إلا تكشف فتة، لقد نسيت الثغور الابتسامات، لقد جهلت القلوب الأفراح، دجان من الدمع وتهتان يرتفع من نواحيه صياح الوالهيّن، الأمان الأمان، ما بقيت أرواح ولا أجساد.

فروق، لو كان حظي منك مثل أساي عليك لادعيت أني أسعد الناس، أرى بك وجوهاً لا عهد لي بها، كنت أفزع منها في دولة الظلم، ولما انشق صباح العدل ظننت أن سنبدل عنها بخير منها، فإذا هي ثابتة كمسامير النحس، لا تقتلعها من مكانها قوة. ما تشتعلين وحدك، كل الأقطار العثمانية في اشتعال.

نار الحرب ونار الثورة ونار الحريق، أغيشت البحار أم جفت الينابيع أم مزقت صحائف الغيث، أم يبس الكون كله؟

لبست عليك ثياب الحداد أربع مرات في أربعة أعوام، هذه حياة الحداد، أم آلى بنوك لا يفرحون بعد الظلم، ما أشد كلف الناس بالظلم، من أجل هذا كانوا يدعون لعبد الحميد بالعمر والتأييد، علا رءوسهم فأثقلها، وأوماً إلى أكفهم فأثقلها، واشترى منهم وطنهم بثمن بخس، ثم جاد به على الخراب، ولكنه كره أن يجود به جملة وأشفق أن يجعله حطباً للنار.

تنفست أطنّة عن النار وبكت الدماء، ثم كان سكوت يتخلله زفير، فاستبطأ الخطب الفريسة، فإذا دمشق ملتهبة، وإذا حيفا ملتهبة أهما تشبهتا بفروق أم هي تشبهتا بهما؟ كلا، إن لفروق السبق، إن عهدا بالنار قديم، تجري النار في أوصالها كما يجري السكر في مفاصل النشوان، هي الشواء اللذيذ تسمنها الغفلة وتأكّلها الخيانة. لهفًا على هدية الفاتح، لهفًا على الغالية البيزانطينية حبّية قسطنطين العظيم، سبية الفاتح العظيم، عروس خدر المجد، غانية الشرق في الغرب، المتقلبة على ترائبها الخضر حمائم الموج، الضاحكة بثغر الخليج في وجه الطبيعة، بنت الربيع، أم الخصب، مناحة البلابل، لعبة النسائم.

ألا ذمة وازعة؟ ألا وجوه تستحي؟ أعند أحداث العظماء أحداث الفاتح وسليم والصقولي والكوبريلي؟ أتلقاء مرأقد الشهداء شهداء الحرية بمقربة من «الكاغد خانة»؟ لا حزن إلا أن تتصدع القلوب كما تصدعت تلك المباني، ولا وجد إلا أن تنضب شئون العيون كما نضبت تلك المياه، تفنى الألفاظ وتنفذ المعاني ولا يؤدي الشكاية لسان ناطق ولا قلم كاتب، وا حسرتاه على فروق.

ما لنا؟ ماذا نحاول عند هذا الملك المسكين؟ لقد مال حتى ضرب الأرض بجرائنه، ألا أشفى، ألا احتضر، أيتها القلوب القاسية، أيتها الأيدي العابثة، أما شبت من القرابين؟ عفي قليلًا، فلقد تعف السباع إذا كثرت لديها الأشلاء.

تعالوا أيها العثمانيون ندرك فروق، تعالوا نأس جراحها، عاصمة ملككم، عذراء دولتكم، إخوانكم، أخواتكم بالعراء موسدون، ألا تغارون عليهم من الأعين الخائنة؟ أليس فيكم من ينهض ليستر جسدًا عاريًا عاش مصونًا؟ ادعوا العثمانيين إلى نجدة فروق، هل من سامع؟ هل من مجيب؟

الفصل الثالث عشر

لعل النهضة الثانية أثبت من الأولى^١

كانتا كنا حاملين، أطبقت ظلمٌ على ظلمٍ حتى التمس الناس بعضهم بالأيدي، ثم لاحت إيماضة فانطوت، ثم استمرت الظلمات أربعة أعوام كاملة، وها نحن اليوم نتبصر فنرى سناً بادياً فنهتدي به، إذا لم يكن برقه خلْباً فإنه كوكب الصبح، بعده نهار مشرق الطلعة صافي الديباجة، ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي.

كنا في مثل هذا الأوان نسمع ما يقوله المعجبون بالاتحاديين، فنكاد نطاول الجبال غروراً، وكنا إذا ذُكر الاتحاديون نُطرب به كما يُطرب بالصوت الحسن سامعه، فإذا دعا باسم الجمعية داعٍ أصاحت له الأرواح في الأجساد، وكم تخيلنا تلك الجمعية، فواحد يصور منها مثلاً كتمثال «فينوس»، وآخر يقيم لها طوراً يسجد له كأنه طور سيناء، وظل كل قلم كأنه «فرشة» روفائيل المصور الشهير، وظلت سلانيك ومناسير كأنهما لوحان من ألواح الفاتنة الخالدة.

وهبنا هذه الجمعية المواد وبذلنا أيام الحياة، فردت المواد وقبلت أيام الحياة، فباتت وهي أملك للأرواح من بارئها، وكانت أحب إلى الناس من النعيم، فصارت أبغض إليهم من الشقاء. ولما سطت على المستبد سطوتها، ورحلت به إلى موضع أمانها، زادت مكاناً وحباً، حتى قدسناها تقديساً، وكانت في غفلة من الأمة تُسرق وتُخزن إلى أن نما ثراؤها ومُلئت خزائنها، ثم اشتد ساعدها واستحل سطرها فلم توقع به إلا الأمة، فإذا سيف من عدل الإله قد سُل على زقاق «شرف» حتى كاد يحصد زرعه حصداً.

^١ كُتبت هذه الرسالة على أثر سقوط الاتحاديين واستلام الوزارة المختارية الكاملة زمام الحكم.

إننا لنعرف لأبطال العثمانيين فضلهم، لقد استعادوا الدستور مرتين، أما المرة الأولى فأتى من لم يصنعوا شيئاً وزاحموهم في الحكم، وأما المرة الثانية فنرجو أن لا تكون كذلك، اليوم أهل فروق في عيد جديد، هنيئاً لأهل فروق عيدهم، وإنها لحسنة وإن صفيت، وفاتنة وإن رفلت في الأطمار البالية، إذا بدت على ترائبها قلائد الزينة بين الثياب، رأينا كواكب الأفق في الليلة الصافية، لن يغيرها أن مآلفها اليوم أحداث، وأن دورها أطلال، حسبها أن خلصها من ظلم الاتحاديين، فإن دام لها هذا الهناء فذلك جد عاود الصعود، وإن ودعها بعد قليل وصل ساعة داوى هجر أعوام.

الفرح بالنُّجْح لا يدع مجالاً للشماتة بخيبة الأعداء، إن العثمانيين أولو نجدة، رضينا أن نفوز ولا نبالي أن يرجع الأغيار بإخفاق.

الله الله، ما أطيّب شذا الحرية، وما أرق نسائمها! ضاقت بنا بلاد الله ونحن اليوم نمرح بين الخافقين جذلاً. دنواً دنواً أيتها الآمال المولية، إننا لنحسبك بعد اليوم ثابتة غير مزعزعة، بضاعتنا رُدت إلينا، لا نطلب من عدو لنا ما بين جنبيه، ذاك عطاء من الله، ولا نحاول حساباً على ما مضى، إننا في حاجة إلى راحة يتلوها العمل.

أهلاً بوزراء الدولة وشيوخ تجاربيها، أحق الموضع بكم هذه المقاعد، ملك مهزول، وأهوال ناصبة، ومكايد مثبتة، وأعداء مختبئون لا ينهض بهذه الأعباء غيركم، فإن جاوزتم بنا الهلكات وانتهيتم إلى الموضع الذي تركنا فيه الآباء، فأمال أصابت وجدود ساعفت، وإن حالت فتن الأعداء دون ما تريدون، فشقاء لم نستحقه ساقه قدر محتم وفناء موعود.

لن نقترح الآن شيئاً، أنتم أعلم بما ينبغي؛ لأنكم في الدار ونحن نازحون عنها، خلا شيئاً واحداً نطالبكم به ما تحركت في أفواهنا ألسن: أن تحموا شيخنا الوطن، وأن لا تجعلوا عصره السابع آخر عصوره، الإخلاص معاً والصدق مرجو، فإن قصرت سواعدكم وصلناها بسواعدنا، أمامكم السلطان وعلى آثاركم الأمة، هكذا تنتظم مواكب المجد.

رحمة الله على حسن فهمي وصميم وزكي ثلاثة أغصان علت في أرض الوطن، في ربيع الحياة، هصرتها يد الموت بمنجل الجمعية، جمعهم التراب كما تجمع الحرية والمساواة والإخاء كلمة العدل، سلام على تلك الأرواح الطاهرة، لعل النهضة الثانية أثبت من الأولى.

الفصل الرابع عشر

كم تحت هذه السماء من أعين باكية!

هل يعقل الدهر وهل يسمع؟
تجري صروف لا على نية
وكلنا شاك وباك على
كم تحت جون الليل من مهجة
وصاحب النعمة لاه بها
رحماك يا خالق هذا الورى
صعب علينا بعض ما قد جرى
فما الذي يشكو له الموجع؟
نخالها تبطئ إذ تسرع
أشياء قد زالت فلا ترجع
تكاد لا تمسكها الأضلع
وحامل النقمة لا يهجع
ارث لبلواه إذا يضرع
أما إذا شئت فما نصنع؟

تحت مضارب الظلم، وفي استغراق سكونها، حركات تحجبها أستار الغيوب، هي الأقدار لا تُغالب؛ لأنها خلقت غالبية، ولا تُتقى لأنها ترى ولا تُرى، والبرايا أغراض منصوبة تنتزعها بالرمية بعد الرمية، فتصيب الأجساد وتنفذ منها إلى الأرواح، ولا يُسمع لوقعها إلا مثل وقع القبلة على جبهة الميت في نعشه.

ما توشك البسمة أن تنطفئ فوق ثغر إلا وتجعه آثار البكاء، إن ينابيع الدموع لمعينة، وإن منابت الحشرات لخصبة، وللأمل الكاذب وميض في ليالي الخطوب، أشقى الناس من يعلق به بصره.

بكينا بيروت في جراحها الدامية وأعولنا على التيتانك في غرقاها، وها نحن اليوم نندب تكساس^١ في أضاحيها. يا ديباجة الأفق انطوي، يا سحب الربيع موري، ويا مياه

^١ باخرة عثمانية اصطدمت بلغم وغرقت في ميناء أزمير.

الأوقيانس غيضي، ويا صفحة الأرض تمزقي، ويا رواسيها ميدي، حتى لا يبقى على هذه الكرة الهوجاء إلا دخان الحشرات منعقدًا في جوّها على أرواح المظلومين.
سمعت يمامة ترجع على فنن الدوح، فهاجني ترجيعها، قلت يا يمامة، دوحك مورق فينان، وماؤك عذب رقرق، وعشك تلاعبه أنفاس الصبا، وملعبك طيات النسائم وملك الله في فضائه، فما شجاك فأبكاك؟ ومَن ألقى عليك هذا الترجيع؟ يطاردك الصياد الخائن فتعجزينه ولا تعلمين أنه مدركك يومًا، وتتوعدك كواسر الهواء متحاومة عليك، وإن في عشك فراخًا زُغب الحواصل، فهل أذاك أن للأقدار وثبات لا مهرب عنها؟ تذكرت قول أبي فراس:

أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويصبر محزون ويندب سالٍ؟
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالٍ

لقد تتقي الحرب بالسلام، ولكن بم تتقي الأقدار؟
مكان الدمعة الحائرة على المحجر المسهد مكان اليتيم الضائع على السبيل الموحشة، تتلأأ ثم تختفي، ولو دامت مكانها لكانت الشقوة أعظم.
أيتها الأم الثاكلة أجملِي جزعًا، وأيتها الأيم الواله اقتصدي وجلاً، ويا ملك المهدي، ابكِ واستبكي، صوتك مرنان ودمعك لؤلؤ رطب، دع الأيام تنظم من ذلك اللؤلؤ قلادة تلبسها الرحمة، هي أولى بهذا الحلي دون كل الحسان.
في ذمة الله أيتها الأنفس المستفاضة والأشلاء الضائعة بين السماوات والبحار، اذكرينا إنا ذاكروك، وابكي علينا إنا باكون عليك، لم يبقَ بيننا وبينك رسائل سوى العبرات.

الفصل الخامس عشر

ما يمنع القلوب أن تطير من الصدور؟

على أبواب الوطن، بين السماء المضطربة والأرض المضطربة، جمعان حالاهما مختلفتان، جمع سكن سكّون الأبد اتخذ من حواشي الجبال مضاجع طاب عليها رقبته، تنفخه أنفاس الشتاء وتنديه مدامع السحاب، كأن الشباب زاده واليوم ينقصه البلى، وكأن الأمل أسكت أفواهه واليوم تنطق الظلامه جراحاته، وجمع رُكزت له راية، فهو مقيم يحميها، لاثب مكانه، لا يستقدم ولا يستأخر، كأن أقدامه استأصلت في موقفه، موكل بمخارم جتالجه، يضرب عليها بالأسداد، قُضي عليه أن لا يسهر إلا على ظاهرها، وأن لا ينام إلا في باطنها، وفي أعشاش القرى ومنازل المدن أصوات تتجاوب بالعويل، وعلى السُرر المتقابلة أجساد استخلصت من الموت أو كادت، التفت حولها العوَّاد، وبين هذه القيامة دولة كظل الجام على المائدة، لا يراه إلا المتثبّت، تستجمع قواها لتصول صولة واحدة، إما إلى حياة تستمر فيها المغالبة، وإما إلى موت تستكن فيه الآمال، هذا هو المشهد الذي تتملى من مشاهدته دول أوروبا، بنات التمدن عرائس القرن العشرين.

لو شاءت تلك الفاتنات أن لا تروع بهذا المشهد لفعلت، إشارة واحدة كانت تستوقف الخصمين، غير أنها آثرت الغرض على الإنصاف، فباتت وعلى أعناقها من آثار تلك الدماء المراقبة قلائد ليست حلى ولا شكلاً، تلازمها على توالي الحقب، شاهدة بآثامها عند أحفادها.

سليلة السبعة الأعصر محتضرة، إننا نراها مختلجة على مرقدتها، لن يضير زوالها إلا العثمانيين، هم وحدهم أولى الناس بالوجل وبالجزع، إن تشتم أنفاسها تقض بسنن الماضيات من الدول، غير أن ذاك الاسم الكبير، اسم العثمانية، يبقى خالداً، مشرقاً في أوله، مظلماً في آخره، ويشهد الله والناس أنه لم تمحُ أكف الأعداء بل أكف بنيهِ، وأنه لم يضيعه إفراط الأعداء في هجومهم بل تفريط الأبناء في حذرهم.

تنادوا بالحرية فأتت وأعطاها تقطر دمًا، بُست الغانية، أغلوا لها المهور فاسترخصت الآمال، لم يبقَ يومئذٍ في مكان الفتنة جانٍ إلا وتبدى للأعين، لقد أصبحت دُور الحكومة كخلايا النحل من كثرة المترددين عليها، كلٌّ يحمل رأيًا وبيتغي له ثمنًا، حتى راحت ملايين الذهب في تلك الهوات، ولم تحصل الأمة من ناهبيها إلا مواعيد أبعد شيء عنها هو الوفاء، وثقت بالدولة فوليتها المتغلبون، وثقت بالجيش فاستهواه المتغلبون، ووثقت بنفسها فضرَبها المتغلبون، ثم وثقت بدول التمدين فأعرضت عنها بوجوهها النضرة. ألا في ذمة الله تلك الثقة، تُهدى إلى الخلائق فيردونها، كأن الله تعالى لم يخلق لها صاحبًا.

إذا دعت الفائدة دول الغرب بذلت في سبيلها كل ودٍّ، ولو كانت أبصر بالفائدة من وجه حلال لأقبلت على هذه الدولة مطالبة بفض هذا الجمع الثائر، جمع الاتحاديين؛ فإنه لا شأن له اليوم، ما رجاله إلا كغيرهم، تتخذهم الأمة أوصياء على نفسها ولم تولِّهم الوصاية دولة من الدول، فلو كانت هذه الدول اتحدت على مطالبة الحكومة العثمانية بذلك؛ لأفادت العثمانيين ولاستفادت.

أية أمة تطيق هذا الذل؟ خمسة أعوام طوال مضت، وأعنة الأمور بأيدي أناس لا ندري من أين طلَعوا، فيهم الجاني والمستبد والمتعصب والسارق والممتن، أوزاع وأعناق لا تكون أسرابًا ولا أقطاعًا، فكيف تكون مملكة يُراد أن يُعاد بناؤها؟ تخاطفوا ما ادخره عبد الحميد وتناهبوا ما علق بأركان الخزائن الفارغة، وأنزلوا الويل على رءوس الأمة حتى استغاثت بالأغيار، وأوقعوا في الناصحين تقتيلًا وتعذيبًا، وصالوا على أهل الرأي يخرجونهم من وظائفهم، ثم فرطوا سلك الممالك فتهاوت متتابعة من طرابلس الغرب إلى البلقان، وجاءوا في أواخر أيام الدولة ليحرموها الموت في دعة. أربعون مليونًا وأكثر من الأربعين مليونًا، ذهبًا عيًّا، لو اشترت الحكومة العثمانية بهذا المال حجارة ترصف بعضها فوق بعض لحالت دون إيغال المتغلبين في أرضها، أين ذهب هذا المال؟ وأين بات ذلك الجيش الذي قالوا إنه في مقدمة جيوش العالم؟

قد كان لأنور بك وإخوانه من الرأي ما يعلمهم فرق ما بين الحرب في درنة والحرب في البلقان، هذا مقدار من المعرفة لا يحتاج أن يكون صاحبه أركان حرب، فكيف خُيل إليهم أن مقتل ناظم باشا وإسقاط ذلك الشيخ العظيم كامل باشا يستدفعان غارات الأعداء؟ ليهنأ أولئك المتطفلون، إن الأمة غافلة، وإن غفلتها ستصاحبها إلى أن يتقلص هذا الظل المتضائل، ظل العثمانية. ولكن كيف السبيل يومئذٍ إلى استرجاع ما مضى، وما مضى لا يُسترجع؟

ما يمنع القلوب أن تطير من الصدور؟

أستثني أنور بك ورفيقه على علاقتهم، ولكن ماذا صنع الباقون؟ قضى منظم هذا الجيش أوقاته في بيته كما تقول جريدة الطان، وتقلد طلعت بك حسامه في أول الحرب وتوجه إلى أدرنة، واليوم مات من القواد والجنود مَن مات وجُرح مَن جُرح وأُسر مَن أُسر، وبات في حصار أدرنة ألوف من المدافعين، وفيهم خلق كثير حتى من مكاتبي الجرائد والقائد لم ينزل عن فراشه الوثير والناظر لم يبدُ للأعين إلا محتمياً بظهر أنور وأنصاره، هذا مبلغ شدة القوة في الذود عن دولتهم، وهذا منتهى نجدتهم في معاندة دول العالم.

ليس لدينا لسكان البلاد إحصاء يُوثق به، غير أنهم كانوا يقولون إن عددهم ثلاثون مليوناً، وكنا نزيد ثمانية من عندنا فنقول ثمانية وثلاثون مليوناً، فكيف يبقى عدد الجنود المجندة من هذه الملايين غير متجاوز ثلاثين ومائة ألف مقاتل؟! ما ذاك إلا أن العدة منعدمة، وأن الأمة افتقدت نشاطها الأول، وغلب عليها اليأس وأدركها الوجوم، وإلا لعبت تلك الوديان بسيل من قنا وجياد، ولتوجت ذرى الشم الصعاب بالمقاتلة من كل الأجناس.

لطم حقي باشا في بعض هجماته إسماعيل كمال بك لكمة دوى صوت وقعها في أذان النواب، فصبر لها إسماعيل كمال وأسرها في نفسه، ولم ينهض في ذلك اليوم نائب يؤاخذ الضارب، جهل الجميع أن حقي باشا لطم ألبانيا بأسرها، أجل، لقد أحس بوقع تلك اليمين كل ألباني ذي حياة، ولقد انتقم إسماعيل كمال، غير أن انتقامه أصاب الدولة ولم يصب المعتدي، وبقي حقي يغشى معاهد لذاته في بيرا وغيرها، والدولة والأمة تنضحان دمًا وتتقدان ألماً.

نموت كراماً أو نعيش كراماً، ما أجمل الكلام لو قاله غير قائله! وكَم من كلام حق يُراد به الباطل، ولا يحتاج الخادع لخدعة الأمة العثمانية إلى أكثر من هذا، غير أنا — وا حسرتاه — نعيش أذلاء، ونموت غداً أذلاء، وتبقى تلك الأموال المختلسة من خزائن الدولة ينفقها مختلسوها في سبيل لذاتهم، لا يُحيون الدولة الزائلة بقطرة من دمع، ما فات مات، وقد قال كثير عزة:

فقلت لها يا عزُّ كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

الآن لما كادت الحرب تطوي شرتها، ويدعى إلى التقاضي قاتل الأمة وناهبها، يأتي الجانون وأيديهم تقطر دمًا، وأكياسهم تتفجر ذهباً، يستعيدون المخادعة؛ ليستروا تلك

الآثام، ثم يُنادون بيننا باسم الوطن الذي قتلوه، ونصدق نحن ما يقولون، إننا إذن أبعد الناس عن الصواب، كلا، إن اسم الوطن أرفع من أن تتماضغه تلك الأفواه، نخشى عليه من حر تلك الأنفاس التي تنفخ بسموم المطامع، على الأمة أن تنظر في أمرها، لا بد لهذا العبء الثقيل أن يُوضع، أفي ساعة الموت نرَوِّع بهذه الوجوه؟ ما يمنع القلوب أن تطير من الصدور؟

الفصل السادس عشر

عبد الحميد مبكيًا بعد سقوطه

إن من عجائب الشرق أن يشكو ابنه الرجل حاضرًا، وأن يشقائق إليه غائبًا، ومن عجائبه أن يكون لكل امرئ رأيان ليس له أحدهما، ولكنه يحملهما استخدامًا لهما، فكلما حل بين جماعة من أهل أحد الرأيين كلمهم به، والآن أرجع إلى استيفاء شرح ما أردت.

رأيت أنا سًا يقولون رحمة الله على أيام عبد الحميد، كانت خيرًا من هذه الأيام، وسقى الله عبد الحميد، كان أحسن من رجال اليوم حالًا، وأحكم تدبيرًا وأسلم نهجًا، يا عجبًا لهذه الرءوس! خلت من كل تأمل، وإنما برق لها في العهد الحميدي بارق المال والجاه والوسام فهاجها، وإلا ماذا يبكيها من افتقاد عبد الحميد؟

ألم يأتها أن رجال اليوم إذا قصرُوا عن الخروج بهذه الدولة من ظلماتها؛ فذلك لأنهم رُبُوا في دولة عبد الحميد ونشئُوا في ظل سلطانه؟

ألم يأتها أن عبد الحميد لم يفسد الدولة وحدها، بل أفسد الأمة معًا؟ أبى عليها مكارم الأخلاق كلها، ما انتفع بكذب إلا حض عليه، ما انتصر بخدعة إلا ساق إليها، أربع وثلاثون سنة، كل سنة منها كالعصر طولًا، من ابن الخمسين إلى ابن السنة الواحدة مستثمر بيد عبد الحميد، ناشئ في دوحته.

أجل، إن الفساد سبق عبد الحميد إلى الأمة، ولكنه تخاذل عنها أحيانًا، ولم ينتصر إلا بعد عبد الحميد.

رأيت رجالًا كان الناس يطاردونهم في العهد الحميدي، فإذا هم اليوم موضع لرحمة الناس، لا أسميهم — والناس يعرفون من أريد — سلبتهم الدولة ألقابهم وردتهم إلى أصولهم، ولكن الأمة لم تبرح حافظة لهم ألقابهم، مؤثرة لهم على سواهم. بمن استعان عبد الحميد إذا بطش؟ وبمن استهدى إلى مكان الأرواح المظلومة إذا استنفرها؟ ألم يكن هؤلاء المرحومون اليوم أعوان نقمته وأهل مشورته؟ ألم يسلب

الأمة لكي يمنحهم؟ ألم يضعها لكي يرفعهم؟ ما أشد جهل الأمة بما لها وبما عليها! ولو رثت لهؤلاء المطرودين نخوةً منها ونجدةً لكان ذلك منها تكرمًا، ولكنها تنظر إلى ما بقى بأيديهم من الغنائم فتعظمهم لتشاركهم في بعضها، على أنها خاطئة؛ لأن الكاسبين في ظل عبد الحميد كسبوا ما كسبوا ببيع أعلى ما يملكه الإنسان، وهو الشرف، ومَن يجعل الشرف فداء المال كيف يوجد بذلك المال لمن يملكه؟

هذا خطأ، غير أنه خطأ لا يُرجى إصلاحه، الناس مغرمون بأولي الجاه، ومغرمون بمن كانوا أولي الجاه، إذا سائر رجل رجلًا من أولئك الواقعين التفت يمنة ويسرة ليرى كيف تجول الأبصار فيه، ولقد يهز منكبيه ويتأود في مشيته زهوًا؛ لأنه يسائر مَن كان له لقب أو قدر في دولة عبد الحميد، وبهذا القدر من الرأي ومن الحرية تريد الأمة أن تنتفض في أغلال الأسر فتكسر حلقاتها.

هيهات ثم هيهات! عرف أعوان عبد الحميد ذنوبهم وخافوا أن تتناولهم الأمة خفافًا وأن تعبت بهم أهوانًا، فوجدوا عند الأمة خلاف ما خافوا، وهذا من أكبر دواعي الأمان لمن أتوا بعد عبد الحميد وسلخوا طريقه، هم يقولون نربح اليوم ولن نخسر غدًا، إذا أسقطنا الحكومة تلتقتنا الأمة بأكفها، وفيما ندخر من المال سبيل إلى حياة طيبة وذكر جميل، وإن أمة لا تعرف الجميل من القبيح لتعجز عن مقاضاة أمثالنا.

إيه يا أهل الشرق، ويا بني العثمانية! يتعاقبكم المتحكمون يجزون نواصيكُم، ويسلون أرواحكم من أجسادكم، وأنتم حامدون شاكرون كأن الله لم يخلق أناسًا لغفران الإساءة ونسيان الجميل سواكم!

إذا فذوقوا ولا تشتكوا، إن أعداءكم اليوم من أولي الحكم أحببتكم غدًا، ولكني كنت أقنع منكم، أن يبقى في فكر بعضكم شيء من هذه الإساءات تعاتبون عليها إخوان الغد عتابًا إذا مالوا بآثامهم عن تلك المقاعد، ولكنكم لن تفعلوا. وا رحمنا عليكم! لم أجد أمة أولى منكم بالرحمة، أحسن الله عزاءكم في عبد الحميد، وأحسن الله عزاءنا فيكم.

الفصل السابع عشر

بين أنقاض الوطن

ديار الحمى حيث القنا والصوارم
لقد طرقتك الحادثات فجأةً
فبينناك والليلات فيك ولائمٌ
لك الله لا تنفك عنك نوائحُ
أدهرك ذا الوادي من الدم مترع
تحريك من عيني الدموع السواجمُ
وأهلك في أمنٍ وبأسك نائمٌ
أذابك والأنهار فيك مآتمُ
ألم يبقَ في ذا الدوح إلا الحمائمُ
إذا أمسكت بالوبل عنه الغمامُ

* * *

حلمنا بشيءٍ وانتبهنا بضده
وكانت لجاجات فلما تيسرت
أقيم بناءً بالعراء على شفا
فما ظنُّ منه قائماً فهو مائلٌ
وهل ينفع الأطلال تجديد عهدا
وما يجتني من كاذب الحلم حالمُ
تزهد مشتاق وأقصر هائمُ
ولم تقوَ أساسٌ له ودعائمُ
ومُن ظُنُّ منهم بانيًا فهو هادمُ
إذا درست آثارها والمعالمُ

* * *

لحا الله قومًا حملوك مغارماً
همٌ وعدوك العدل كي يظلموا به
ولا خير في ملكٍ إذا جار شعبه
وكيف انتقاء الخطب قد جل وقده
وراحوا وفي الأعناق منك مغانمُ
أبًا ظالمًا لكن دعتك المظالمُ
ولا خير في ملكٍ إذا جار حاكمُ
إذا بردت تحت الصدور العزائمُ؟

* * *

وأربعةٍ مرت ولم تحلُ لامرئٍ
تهادت على الأقطار وهي سمائمُ

سعت بالنيوب العصل تنفث موتها
تعوض يأساً مَنْ غدا وهو آملٌ
ولما أباحوا حرمة الرأي للهوى
فهبت هبوب الريح من كل جانبٍ
فما تستطيب الحكم فيه مشاركٌ
ويمسي لديها طائعٌ وهو خائفٌ
وليس بمجدٍ في الغواية ناصح
وكيف يقر المجد في ظل دولةٍ

ولا عجب بعض السنين أراقمُ
وشام يقيناً مَنْ سرى وهو واهمُ
أهابت بأطماع الغواة المآثمُ
تدافع عنها بعضها وتزاحمُ
ولا تستلذ الغنم فيه مقاسمُ
ويضحى لديها أمرٌ وهو واجمُ
وليس بمجدٍ في الصبابة لائمُ
وحامدها يحيا بها وهو ناقمُ

* * *

تداعوا لنصر والرجا عنك ذاهب
وبت ويات الداهمون تعاضدوا
فلم أرَ خطباً مثل خطبك ناهضاً
ولم أرَ مجداً مثل مجدك ناصعاً
تطالعك الأقدار وهي عوابسُ
وترثي لبلواك المداين رحمة

فهلا تداعوا والرجا لك قادم
فإما تراخى داهم شد داهمُ
يدافعه ملك كملكك جاثمُ
يظلمه حظٌ كحظك قاتمُ
ويا طالما حيتك وهي بواسمُ
وقد حسدت فيك السرور العواصمُ

* * *

فيا مَنْ رأى تلك الفتوح التي خلت
لئن كنت في شكران حالك جارماً
سنبكي لعهدٍ عازره متجدد
وفي الدمع والتأسي تخفيف لوعةٍ

تجرع أسى قد أعقبتها الهزائمُ
فما أنت في شكران ماضيك جارمُ
ونأسى بعهدٍ مجده متقدّمُ
إذا أثقلتها الكاربات الكواظمُ

* * *

ومعتركٍ للموت أما سماؤه
تنازع فيه النصر خصمان أعزلٌ
تأخرت الأعلام عن مستقرها
تفزعت الآجام وهي شواهد
تجاوبها من حولها في زئيرها

فنقعُ، وأما أرضه فجماجمُ
يدافع عن ملكٍ وشاكٍ يهاجمُ
وفر محاميها وقر المخاصمُ
ضراغمها تسطو عليها الضراغمُ
رعود لها في الخافقين زمازمُ

بنادق منها عارض متراكم
وراجف روع مستطار فحائم
ووجه رجاً في أوجه البعض ساهم
هَيَامًا فَمَنْ يُقْتَل يَمِت وهو هائم
وما لهم غير الرمام مطاعم
وإن وجدوا بأسًا فكل مسالم
وموج المنايا تحته متلاطم
وتنزو بأخرى للصدور الصوارم
فلم يبقَ في هذي النفوس مساوم
ولم تبقَ في الدنيا لطبع مكارم

مدافع منها قسطل متراكب
وصائب حتف مستهل فواقع
ووجه ردئ في أوجه الكل ضاحك
كأن الوغى قد صار في أنفـس الـورى
فمالهم غير الدماء مشارب
إذا أنسوا ضعفًا فكل محارب
وما خير سلم فوقه الشر عاصف
تشير أكف بالسـلام خـديعة
وكم كان في هذي النفوس منافس
ولم تبقَ في الدنيا لنفس فضائل

* * *

ولما يكن في «قرق كليسا» مصادم
وطال عليها مأزق متلاحم
ولم يلقَ «عبد الله» جيشًا يقاوم
فبادت وولت للنجاة النعائم
زيانب في أترابها وفواطم
ترائب منها روعة ومعاصم
وليس لها من مصدر البأس عاصم
فقد قيل في القوم المغيرين راحم
فإن دعام الحرب تحتك قائم
وهل يستذل الدهر والدهر عارم
ولا غرو للمجد الأثيل مواسم
وأناف أعداهم لديك رواغم
أقرك فيه خطبك المتفاقم
وإن تسأمي هونًا فمثلك سائم
فذاك بلاء أعظمته العظائم
وإن تهلكي لا يهنأ العيش سالم

هوت «قرق كليسا» عند أول صدمة
أناف عليها جحفل متحامل
تقاعس «عبد الله» فيها عن العدى
وقد كان فيها سلة من ضراغم
بدت تستغيث الهاربين من الردى
سوافر في ذاك الدجى قد تبذلت
فليس لهم عن مورد العار دافع
أما كان في القوم المولين راحم
أدربة لا يبرح دعامك قائمًا
عرمت عرام الدهر جاشت صروفه
ألا إن هذا موسم المجد عائدًا
يظل بنوك الباسلون بعزهم
تبوأَت بين الموت والهون موضعًا
فإن تشته موتًا يرُق لك كاسه
إذا نحن أعظمنا بلاءك روعة
فإن تسلمي تنسي رزية هالك

شطلجة لا تنفك عنها خضارم كذلك لا تنفك عنك خضارم
فيا عجبًا للويل منه مشاكل ويا عجبًا للويل منه ملائم

* * *

بلادي ما لي لا أرى غير واطي ثراك ألمًا يبقى في الناس لاثم
توالتك تيجان فشادت لك العلى فلما استتمت هدمتها العمائم
لئن كان في الأسلاف بينك غالب فما كان في الأسلاف بينك حازم
لقد بان عنك الرأي مذ بان كامل وقد مات فيك البأس مذ مات ناظم
طغى الشر في بعض النفوس ولم يزل يرب إلى أن أعلن الشر كاتم
ألا جمع الغاؤون فيك جماعهم فهيئات تجدي بعد هذا الشكائم
تولوا سرعًا حين سلت بواتر وعادوا سرعًا حين صلت دراهم
فجاءوا يسوسون الأنام سياسة «سدى لم تسسها قبل ذاك البهائم»
فكم عالم صاحوا به أنت جاهل وكم جاهل قالوا له أنت عالم
أقاموا وما فيهم عن الزور تائب وظلوا وما فيهم على الختل نادم
عزيز علينا أن ذا الملك زائل وأن الذي قد أذهب الملك دائم

* * *

صحا كل شعب فاسترد حقوقه فيا ليت يصحو شعبك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم وليس له فيمن تولاه خادم
يقلّب من عهد لعهد على الأذى إذا زال عنه غاشم جد غاشم

* * *

أعاديّنا حكمتمو السيف بيننا فجار وحكم السيف كالسيف صارم
فلا تطمعوا أن تهضمونا بهذه فليس لحر في البرية هاضم

إلى حضرات القراء

انتهت التجارب، ويرى القراء من مطالعتها أنها كُتبت في أوقات مختلفة على حسب تقلبات الأحوال السياسية، فأبدى الكاتب رأيه في تلك الحوادث، وقد علمت من سعادته أنه كان يود مواصلة الكتابة وتدوين كل ما عنَّ له، غير أنه رأى أن أكثر تجاربه مؤلم كما جاء في المقدمة فاكتفى بهذا القدر ولسان حاله ينشد قول المتنبي:

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي

وقد عرف قراء مؤلفات ولي الدين بك يكن السابقة كالمعلوم والمجهول والصحائف السود وهذا الكتاب المؤلَّف سياسيًا واجتماعيًا، وسيصدر قريبًا كتاب عفو الخاطر، فيعرفونه أدبيًّا؛ إذ قد خلا الكتاب المذكور من كل شيء سوى الأدبيات من شعر ونثر، وإني أبشّر حضراتهم أن سعادته ساع في جمع ديوانه ونشر سائر آثاره، فيعرفونه إذ ذاك شاعرًا كبيرًا كما عرفوه كاتبًا قديرًا.

فؤاد مغيب

